

قاسم أمين

تحرير المرأة والتمدن الإسلامي



محمد عمارة

قاسم أمين
تحرير المرأة والتمهدين الإسلاميين

الطبعة الأولى ١٩٨٨

الطبعة الثانية ٢٠٠٨

رقم الإيداع ٨٨/١٧٤٢

ISBN.977-148-183-5

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دارالشروق

٨ شارع سيدي بيه المصري

مدينة نصر - القاهرة - مصر

تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩

فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)

email: dar@shorouk.com

www.shorouk.com

محمد عمارة

قاسم أمين

تحرير المرأة والتمدن الإسلامي

دار الشروق

المحتويات

٧	تقديم
١٥	بطاقة حياة
٢٩	قسمات المنهج الاجتماعي
٤٧	المجتمع الذي يشربه
٦١	التطور الفكري
٨٥	حرية المرأة
١٠٧	في التمدن الإسلامي
١٢٩	مصر... والمصرية... والمصريون
١٤١	في الوطنية
١٥٥	أعماله الفكرية
١٦١	كلمات
٢٠٥	المصادر

تقديم

ليست الريادة هي المعيار الوحيد الذي يكسب المفكر والمصلح مكاناً عالياً وهاماً في حركة تطور المجتمع الذي يعيش فيه، وإن تكن لها ميزاتها ووزنها وتكاليفها التي تضاف على أصحابها الكثير من المجد والتقدير.

وفيما يتعلق بارتداد المفكرين والمصلحين في شرقنا العربي للإسلامي، في العصر الحديث، لميدان الدعوة إلى تحرير المرأة المسلمة والشرقية، هناك خلاف قائم بين عدد من الذين عرضوا بالتاريخ لذلك الحدث الذي حاول به هؤلاء المفكرون والمصلحون أن يتخطوا بالمرأة نطاق حريم العصور «الملوكية - العثمانية» المظلمة إلى أعتاب ورحاب الاستنارة واليقظة والتفتح التي أفاءها على الشرق عصر التنوير الذي بدأته مصر في عهد محمد علي (١٨٠٥ - ١٨٤٨ م)، وقادت الشرق إلى ساحاته منذ ذلك التاريخ.

فهناك من يرى أن فضل الريادة في هذه الدعوة، إلى تحرير المرأة، معقود لقاسم أمين، وأن «أول صيحة لهذا التحرير هي

صيحة قاسم أمين، في كتابيه (تحرير المرأة) و(المرأة الجديدة)^(١) ومؤدى هذا رأى أن الدعوة إلى تحرير المرأة لم تعرفها مجتمعاتنا الشرقية، ومصر، بالذات قبل تاريخ صدور كتاب (تحرير المرأة) في سنة ١٨٩٩ م.

وهناك من يرى أن الأتراك العثمانيين كانوا أسبق من المصريين في سلوك هذه السبيل، وأن الأستانة قد ارتفعت فيها هذه الصيحة قبل القاهرة، وأن صحيفة (الجوائب) قد شهدت دعوة صاحبها أحمد فارس الشدياق (١٨٠٤ - ١٨٨٨ م) إلى تحرير المرأة قبل أن يولد قاسم أمين. . . ويعللون سبق الأتراك إلى هذا الميدان «بكثرة اختلاطهم بالأجانب، وسبقهم في الاطلاع على أسباب التمدن الحديث»^(٢).

وإذا ما كان السؤال: أيهما أسبق في الدعوة لتحرير المرأة: أحمد فارس الشدياق، أم قاسم أمين؟ فإن البداهة تعطى السبق للشدياق. . . فهو قد عاش ومات قبل أن يكتب قاسم عن المرأة وتحريرها، وصحيفة (الجوائب) قد صدرت (١٨٦٠ م - ١٢٧٧ هـ) أي قبل مولد قاسم أمين بنحو أربع سنوات.

ولكننا لن نعثر على الحقيقة في قضية الريادة لهذه الدعوة إذا

(١) الدكتور محمد حسين هيكل (تراجم مصرية وغربية) ص. ١٥٢، طبعة القاهرة، مطبعة مصر - بدون تاريخ.

(٢) «الهمال» تأييد قاسم أمين. انظر ص ٦ من تقديم الناشر لكتاب قاسم أمين «أسباب ونتائج وأخلاق ومواعظ» - طبعة الإسكندرية، سنة ١٩١٣ م.

نحن وقفنا عند هذه الحدود التي يرسمها أصحاب هذا الخلاف . . .
ذلك أن هناك وقائع أخرى، نراها هامة وضرورية لمن يريد
الوصول إلى كلمة سواء في هذا الموضوع .

فأولا: كانت مصر، في ظل الدولة المدنية الحديثة التي قاد
إنشاءها محمد علي، أسبق إلى حركة التمدن الحديث بكل
مناحيها وأشكالها - ومنها الدعوة لتحرير المرأة - من المجتمع
العثماني، ولقد بدأت انعكاسات التجربة المصرية تعمل عملها
وتحدث تأثيراتها في الدولة العثمانية، ذاتها، حتى قيل: «إن
النهضة العثمانية، بكل فروعها، مسبقة في مصر، ومقتبسة
عنها»^(١). فالريادة هنا لمصر لا للأتراك العثمانيين . . . وذلك إذا
أخذنا قضية التمدن الحديث والدخول إلى عصر النهضة والتنوير
على وجه الإجمال .

وثانيا: إذا نحن أردنا التأريخ لنشأة المدارس العربية والوطنية
التي قامت لتعليم البنات بعض الفنون والعلوم، وهي تلك التي
أنشأها محمد علي للتمريض، وغيره من الفنون . . . وهو تاريخ
سابق على صدور (الجوائب) في ستينيات ذلك القرن بثلاثة عقود
تقريبا .

وإذا نحن نقبنا في الفكر العصري الذي شهدته مصر في ظل
تلك الدولة الحديثة ومجتمعها، وجدنا الدعوة، غير المباشرة، إلى
تحرير المرأة وتعليمها معلنه في كتاب رفاعه الطهطاوي (١٨٠١ -

(١) الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي، دراسة وتحقيق الدكتور منعم
عمارة، ص ٣٥٢، طبعة بيروت، سنة ١٩٧٥ .

١٨٧٣ م) «تخليص الإبريز في تلخيص باريز» وتاريخ تأليفه سابق على أكتوبر سنة ١٨٣٠ م، وطبعته الأولى قد صدرت سنة ١٨٣٤ م^(١) وهو قد ترجم إلى التركية في ذلك التاريخ.

كما نجد الدعوة إلى تقريب الفروق بين حق المرأة وحق الرجل في التعليم تظهر في مداولات (لجنة تنظيم التعليم) التي كان الطهطاوي عضواً بها، فتقترح هذه اللجنة في سنة ١٨٣٦ م «العمل لتعليم البنات في مصر» تعليمًا يتخطى حدود الضرورات العملية التي كانت تحكم مناهج المدارس التي كانت قائمة للبنات في ذلك التاريخ.

وهكذا تسبق مصر ويسبق المصريون الأتراك في الدعوة إلى تعليم المرأة وتغيير أوضاعها . . . ويسبق الطهطاوي الشدياق، وغيره في ارتياد هذا الميدان . . . ثم يأتي كتابه (المرشد الأمين لتربية البنات والبنين) الذي كتبه في بداية السبعينيات بتكليف من (ديوان المدارس) كي يدرس في مدارس البنات . . . يأتي حاوياً لكثير من الآراء ووجهات النظر التي تمثل مجموعها أول بناء فكري شبه متكامل يكرسه مفكر عربي لقضية تحرير المرأة في عصرنا الحديث . تلك هي قضية الريادة في هذا الميدان . . . فهي لمصر محمد علي، وليست لتركيا آل عثمان . . . وهي للطهطاوي، وليست لأحمد فارس الشدياق أو قاسم أمين.

* * *

(١) الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي «دراسة وتحقيق الدكتور محمد عمارة»، ج١ ص ٧٨، طبعة بيروت، سنة ١٩٧٣.

ولكن . . . تبقى لقاسم أمين ، في هذا الميدان ، ميزة ينفرد بها عن كل من عداه من المفكرين والمصلحين الذين أسهموا بسهم في هذه السبيل . . . فكل من عدا قاسم أمين كان حديشهم عن تحرير المرأة والنهوض بها أمراً من أمور كثيرة تناولوها فيما أبدعوا من أفكار وآثار . . . أما قاسم أمين فهو الوحيد من بين كل هؤلاء الذي وهب كل جهوده وجميع آثاره - تقريباً - لهذه الدعوة ، حتى لقد ذهب علماً عليها ورمزاً لها : تداعى قضاياها وحجج أصحابها إذا ذكر اسمه في أى وقت وأى مجال .

بل إن كل الجوانب الأخرى التي مثلت وتمثل الأقسامات المتعددة لفكر قاسم أمين وموقفه الإصلاحى ، وهى الجوانب التي ستكشف عنها دراستنا هذه للمرة الأولى ، إنما جاءت من خلال دراسته لهذه القضية ودعوته قومه لهذا الأمر الخطير .

● فمنهج البحث الاجتماعى فى البحث . . . ومذهبه فى رؤية التاريخ وتطور المجتمعات .

● وائتماده الاجتماعى والفكرى . . . والمجتمع الذى بشر به .

● وموقفه من «التمدن الإسلامى» وفهمه لهذا التمدن .

● ودعوته فى الإصلاح الاجتماعى . . . والتربوى .

● وموقفه من تبلور الشخصية المصرية الحديثة . . . ومزاجه

المعتدل فى الوطنية . . . وتقييمه لتجربة مصر الحديثة .

كل هذه الأقسامات ، وغيرها ، فى فكر قاسم أمين ومذهبه

الإصلاحى، قد تبدت من خلال حديثه عن القضية الأساسية التى نذر نفسه لها . . وهى قضية المرأة الشرقية والمسلمة، والعمل على الانتقال بها من ظلمات جاهلية العصور الوسطى إلى أنوار تحضر العصر الحديث .

فإذا لم تكن ريادته ريادة سبق . . وإذا لم يكن سبقه سبق زمان وتاريخ . . فإن له الريادة فى تكريس كل جهده الفكرى لهذه القضية قبل غيرها، بل ودون غيرها - تقريباً - من قضايا الإصلاح .

وإذا كانت هذه الدراسة التى نقدمها عن قاسم أمين ستضع، من خلال فصولها القادمة، فكر القارئ والباحث على حقائق وقسمات فى فكره لم يلتفت إليها كثير من دارسيه . فإن الفضل فى ذلك - بعد المنهج العلمى الذى نتناول به دراسة فكره - يعود إلى مجيء هذه الدراسة ثمرة للنظرة الشاملة لأعماله الفكرية الكاملة، خصوصاً أنها الدراسة الأولى التى تهتم كثيراً برصد تطوره الفكرى، بعد أن يسرت لنا تلك المهمة ترجمة كتابه «المصريون» الذى رده على الذوق الفرنسى «داركور»، والذى كان أول كتاب يؤلفه قاسم أمين .

لقد ظل هذا الكتاب الهام بعيداً عن قراء العربية منذ صدوره بالفرنسية سنة ١٨٩٤ م حتى تاريخ تقديمنا له بالعربية، ضمن أعماله الكاملة سنة ١٩٧٦ م . . ومن هنا كان الجديد الذى تقدمه هذه الدراسة عن فكر قاسم أمين، مرتبطاً ونابعاً من الجديد الذى قدمته طبعتنا المحدثّة لأعماله الكاملة منذ خمس سنوات .

فاليوم قد أتاحت لقراء العربية نصوص قاسم أمين وأعمانه
الكاملة للمرة الأولى .

واليوم قد أتاحت للغة العربية فرصة امتلاك نص كتابه
«المصريون» لأول مرة .

واليوم تتاح لقراء العربية إمكانية رصد جوانب فكره وقسمات
مذهبه الإصلاحى .

وهى الأمور التى نرجو أن يكون قد حالفنا فى إنجازها
التوفيق .

الدكتور

محمد عمارة

بطاقة حياة

[إن اللذة التي تجعل للحياة قيمة، ليست
حيازة الذهب، ولا شرف النسب، ولا علو
المنصب، ولا شيئاً من الأشياء التي تجري وراءها
الناس عادة.. وإنما هي أن يكون الإنسان قوة
عاملة ذات أثر خالد في العالم...].

قاسم أمين

في هذه «البطاقة» نكتف المعالم الهامة والبارزة، في حياة قاسم أمين، وذلك حتى تكون سنطورها «شريطاً» يعرض، في إيجاز شديد، حقائق هذه الحياة وتطورات صاحبها في حياته الخاصة والعامة. . فهي ليست «ترجمة» - بالمعنى المتعارف عليه - لحياته، وإنما هي «بطاقة» لهذه الحياة نكتف معالمها البارزة في عدد من النقاط :

- ١ -

✽ ولد قاسم أمين لأب تركي عثماني وأم مصرية من صعيد مصر. . فوالده محمد بك أمين، كان قبل مجيئه إلى مصر واستقراره بها، الوالي التركي على إقليم «کردستان» إحدى ولايات الدولة العثمانية في ذلك التاريخ .

وعندما ثارت «کردستان» ضد الدولة العثمانية، وأعلنت استقلالها وانفصالها عن الآستانة، كان واليها محمد بك أمين في الآستانة، فظل بها، حتى منحه الدولة، عوضاً عن إمارته، إقطاعات في مصر، بإقليم «البحيرة»، قرب مدينة «دمنهور» فنشأت علاقته بمصر، وقرر الإقامة بها، وكان ذلك في بداية حكم الخديو إسماعيل .

* وفي مصر تزوج محمد بك أمين إحدى بنات أسرة مصرية من صعيد مصر ، هي ابنة أحمد بك خطاب ، شقيق إبراهيم خطاب باشا .

* وفي مصر كذلك التحق محمد بك أمين بالجيش المصري ، على عهد الخديو إسماعيل ، وفيه ارتقى حتى بلغ رتبة «أميرالاي» ، وشغل مركز قائد سلاح «المرايطين» .

* وهناك من يرجح أن تاريخ ميلاد قاسم أمين - وهو الابن الأكبر لهذه الأسرة - كان في أول ديسمبر سنة ١٨٦٣م^(١) . وهناك خلاف في محل ميلاده . هل هو الإسكندرية ، أم صاحبة «طرة» القريية من القاهرة ؟ ولعل الأم كانت تقيم بالإسكندرية ، على حين كان عمل الأب في «طرة» ، ومن هنا نشأت أسباب اللبس والاختلاف .

* وفي الإسكندرية قضى قاسم أمين أولى سنواته في التعليم . فلقد دخل مدرسة «رأس التين» الابتدائية ، وكانت يومئذ مدرسة أبناء الأرستقراطية من أبناء الأتراك والشراكسة والأثرياء .

وبعد حصول قاسم على شهادة الابتدائية انتقلت الأسرة من الإسكندرية ، واستقر بها المقام في القاهرة ، وسكنت في حي

(١) يخطئ كل من «مركيس في معجم المطبوعات العربية والمصرية» ومحمد رضا كحالة في «معجم المؤلفين» و«الموسوعة العربية الميسرة» في تحديد سنة ميلاده . فيجعلونها سنة ١٨٦٥م . ولكن الزركلي في «الأعلام» ، وكذلك كتاب ترجمته وأصدقائه ومعاصروه يجعلونها سنة ١٨٦٣م .

الأرستقراطية القاهرية يومئذ، حتى «الحلمية» . . والتحق قاسم بالمدرسة التجهيزية - الخديوية - والمدارس التجهيزية في ذلك العصر تقابل المدارس الثانوية هذه الأيام . . وفي هذه المدرسة دخل قاسم أمين القسم الفرنسي .

✽ وبعد المرحلة التجهيزية التحق قاسم بمدرسة الحقوق والإدارة - وهي مدرسة عليا كانت البديل لكلية الحقوق في غياب الجامعات - ومنها حصل على «الليسانس» . وهو في العشرين من عمره ، ١٨٨١ م . . وكان أول خريجها في ذلك العام .

✽ وكان قاسم أحد طلاب الحقوق الذين اقترحوا من حلقة جمال الدين الأفغاني ومدرسته الفكرية التي ازدهرت بمصر في ذلك التاريخ .

- ٢ -

✽ اتجه قاسم أمين ، بعد تخرجه وحصوله على الليسانس ، إلى العمل بالمحاماة . . وكانت لوالده صلات وثيقة مع المحامي الكبير مصطفى فهمي باشا - الذي تولى فيما بعد رئاسة الوزارة في ظل الاحتلال الإنجليزي لمصر - فالتحق قاسم بالعمل في مكتب مصطفى فهمي للمحاماة .

✽ ولم تطل مدة عمل قاسم بمكتب مصطفى فهمي باشا للمحاماة . . ففي نفس العام - ١٨٨١ م - سافر في بعثة

دراسية إلى فرنسا، وهناك انتظم في جامعة «مونبلييه» . .
وبعد دراسة استمرت فيها أربع سنوات أنهى دراسته القانونية
بتفوق في سنة ١٨٨٥ م.

✽ وأثناء مقام قاسم أمين بباريس، حدثت بمصر أحداث الثورة
العراية التي قادها وشارك فيها عديد من تلامذة جمال الدين
الأفغانى، والحزب الوطنى الذى كونه بمصر سرّاً فى أواخر
السبعينيات . . ثم انتهت هذه الثورة بالتدخل الإنجليزى
المسلح، واحتلال إنجلترا لمصر، ومحاكمة زعماء الثورة
ونفيهم من البلاد.

✽ ثم استقر المقام بالأفغانى - بعد فك إقامته الجبرية بالهند -
وكذلك بمحمد عبده - بعد نفيه من مصر - استقر بهما المقام
بباريس منذ سنة ١٨٨٣ م، وهناك أصدرت مجلة «العروة
الوثقى» لسان حال لتنظيم «العروة الوثقى» السرى الذى
انتشرت فروعه من مصر إلى الهند، والذى قام أساساً
لمناهضة الزحف الإنجليزى على الشرق، ولتناوأة احتلالهم
مصر بالذات.

وفى تلك الفترة عادت صلات قاسم أمين مع الأفغانى
وسد رمسته، فكان «المترجم» الخاص بالإمام محمد عبده فى
باريس .

✽ وفى فرنسا قرأ قاسم لمفكرى أوروبا الكبار، ومن بين الذين
قرأهم: نيتشه (١٨٤٤ - ١٩٠٠ م) وداروين (١٨٠٩ -
١٨٨٢ م) وماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣ م).

وفي فرنسا كذلك حاول قاسم أمين الاقتراب من المجتمع الفرنسي وإقامة الصلات الوثيقة مع نمط حياة الفرنسيين الاجتماعى . . . غير أن طبيعته الشرقية الخجولة وسمة الانعزالية التى ميزت شخصيته لم تمكنه من الذهاب بعيداً فى هذا المضمار .

فهناك صداقة ، بل وحب ، قد نما بينه وبين «سلافا» تلك الفتاة الفرنسية التى زاملته فى الدراسة بجامعة مونتيليه . . . ولكن هذه الصداقة وذلك الحب قد ظل «رومانسيا» ، وكانت أهم آثاره تلك المشاعر النبيلة التى بدأت تتولد فى نفس قاسم نحو المرأة منذ ذلك الحين ، وتلك الأحلام الوردية التى بدأت وظلت تراوده عن قيام المرأة بدور الوحي والخافز والمساعد فى حياة الرجل ، ومن ثم المجتمع ، بدلاً من بقائها قيداً يشدد خطو الرجل والأمة إلى الوراء . . . لقد بدأ يحلم بالإنسانة التى تجمع بين جمال الأنثى وعقل الرجل !

كما وقف هذا الخجل الشرقى وتلك المحافظة والانعزالية ، اللذان تحلت بهما طبيعة قاسم أمين ، حائلاً بينه وبين الانسجام مع مروح ذلك المجتمع ، وما كان لرجالهنسائه من علاقات لم تكن مستساغة عند أغلب الشرقيين الذين ذهبوا إلى باريس فى ذلك التاريخ .

فقاسم ذهب إلى باريس بعد رحلة الطهطاوى إليها بخمسة وخمسين عاماً ، والثانى كان شيخاً أزهرياً ، وواعظاً بالخيخ ، وإمام الدين للبعثة الدراسية التى ذهبت لتعلم هناك . . . ومع فارق

الزمن وفارق الثقافة والبيئة . . فقد كان الطهطاوى أكثر تقبلاً
وتفهماً لعادات الفرنسيين الاجتماعية وعلاقاتهم الأسرية .
وأقل محافظة في تقييمه لحفلاتهم واختلاط رجالهم بنسائهم من
قاسم أمين .

فالطهطاوى ينفى أن يكون سفور المرأة الفرنسية مفضياً ،
بالتبعية والحتم ، إلى التبذل والخروج عن مقتضيات العفاف . .
فالفرنسيون يحافظون - مثلنا - على « العرض » ويسمونهُ شرفاً ، بل
« ويقسمون به عند المهمات ، وإذا عاهدوا عليه ، وفروا
بعهودهم ! » . . « هم مثل العرب في هذا الأمر . . » أما حدوث
« اللخبطة » - كما يقول - بالنسبة لعفة النساء ، فليس مبعثه السفور
أو الاختلاط ، بل ولا شيوخ العشق في المجتمع الفرنسي ، لأن
منشأ « العفة » أو « اللخبطة » إنما يعود إلى « التربية الجيدة أو
الخسيسة ، والتعود على محبة واحد دون غيره ، وعدم التشريك
في المحبة ، والالتزام بين الزوجين » . . ومن ثم فإن الفرنسيين « تنقل
فيهم دناءة النفس » فيما يتعلق بعلاقات الرجال مع النساء^(١) .

تلك كانت انطباعات الطهطاوى عن هذا الجانب من جوانب
المجتمع الفرنسي .

أما قاسم أمين فإنه كان أكثر تحفظاً في التقييم لهذا الجانب من
حياة الفرنسيين ، فهو يكتب عنه فيقول : « . . . يضم المجتمع
الأوروبي الرجال والنساء دائماً ، فيسهل الاتصال بينهم ، وتنشأ

(١) « الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى » ، ج ١ ص ١٠٩ ، ١١٠ .

فيما بينهم علاقات ألفة وصداقة وحب، وهذا الاختلاط بين الجنسين في الاجتماعات يسبغ عليها عذوية ورقية، فالسحر الذي تشيعه المرأة في كل مكان توجد فيه، شيء ممتع ونفاد كعطر الزهور. وفي مثل هذه الاجتماعات ينعم المرء دائماً بالمرح، وغالباً ما يتودد للغير، ويخرج في النهاية مفعم القلب بالرضا! ».

ثم يستطرد متحدثاً عن تجربته الذاتية مع هذا النمط من الحفلات الباريسية فيقول: «وقد أتيت لي تقييم هذا السحر الفريد، وكان شأني شأن الآخرين في الإحساس بقدره، وخاصة في وجود امرأة تجمع حصة الفكر إلى جمال الجسد. وقد رمت بي طبيعتي الخجولة بين الاضطراب والحيرة أكثر من مرة، غير أن هذا لم يقلل من حبي لهذه اللقاءات الشيقة التي يهتم فيها الجميع بخلق جو البهجة والاستمتاع به! »^(١).

* وفي صيف سنة ١٨٨٥م عاد قاسم أمين إلى القاهرة، وذلك بعد أن عمل هناك مع أستاذه «لرثود» - عقب التخرج - عدة شهور.

- ٢ -

* ويوم احتفال قاسم أمين بعيد ميلاده الثاني والعشرين - أول ديسمبر سنة ١٨٨٥م - صدر قرار تعيينه بالقضاء، في النيابة

(١) «الأعمال الكاملة لقاسم أمين». دراسة وتحقيق الدكتور محمد عمارة. ج ١.

ص ٢٩٢ طبعة بيروت سنة ١٩٧٦م

المختلطة . . . فبدأ طريقه لتحقيق طموحه ، وخاصة ما يتعلق
منه بإثبات جدارة المصري ونذيته للأوروبي في تولي
الوظائف العامة والنهوض بأعبائها . . . وبرزه أخص في
حقل مؤسسة قضائية وطنية تكون موضع ثقة المقيمين بمصر ،
أجانب ومصريين على حد سواء .

* وبعد شهر من عودة قاسم إلى أرض الوطن توفي والده
محمد بك أمين .

* وفي ٢٢ سبتمبر سنة ١٨٨٧ م نقل من النيابة المختلطة إلى
قسم قضايا الحكومة .

* وفي يوليو سنة ١٨٨٩ م رقي إلى منصب رئيس نيابة «بنى
سويف» ، بصعيد مصر . . . وهناك بدأ يطبق مفاهيمه وآراءه
في فلسفة العقاب ودوره في الإصلاح الاجتماعي ، فلقد
وجد الكثيرين من الذين وضعتهم الإدارة الحكومية ظلمًا ، في
سجن «بنى سويف» ، ففك قيود أغلبهم وأطلق سراحهم !

* وفي سنة ١٨٩١ م انتقل رئيسًا لنيابة «طنطا» . . . حيث
واجهته هناك حادثة هامة وقف إزاءها يبحث عن خيارين ما
يقرضه عليه القانون وما تدعوه إليه الوطنية والوفاء لمدرسة
الأفغانى التى انتسب إلى فكرها ومنح رجالها الحب
والإعجاب منذ عهد صباه .

فلقد وقع عبد الله تديم (١٨٤٣ - ١٨٩٦ م) - أبرز زعماء الثورة
العراقية وأصلب قادتها - في قبضة الشرطة ، وذلك بعد اختفاء

أسطوري دام تسع سنوات . . . وجرى به إلى رئيس النيابة قاسم أمين؟! فأكرم لقاءه، وأعطاه مالاً من عنده، وهياً له في محبته أقصى ما يمكن من ظروف الرعاية والراحة . . . ثم قرر أن يقوم بالسعي لدى المسئولين في العاصمة كي يفرجوا عنه ويطلقوا سراحه، فسافر إلى القاهرة يلتمس له العفو . . . وبعد حملة صحفية، تبنت هذا المطلب، قررت الوزارة العفو عن عبد الله نديم مع إبعاده إلى الشام في ١٢ أكتوبر سنة ١٨٩١ م. بعد منحه مبلغ مائة وخمسين جنيهاً!

ونفس الصنيع كان يكرره قاسم أمين مع الطلبة المقبوض عنهم في المظاهرات! بل كان يخفى بعضهم حتى يستصدر لهم العفو من السلطات!

* وفي ٢٦ يونيو سنة ١٨٩٢ م عُيِّن قاسم أمين نائب قاض في محكمة الاستئناف . . . ثم رقي بعد عامين من ذلك التاريخ إلى منصب مستشار، وكان يوسد في الحادية والثلاثين من عمره.

* وتقدّ عرفت عنه، طوال مدة عمله بالقضاء، دعوته إلى جعل القضاء المصري والمحاكم الأهلية الوطنية جهة التقاضي والمحكمة بالنسبة للأجانب الذين يعيشون بمصر - باستثناء أحوالهم الشخصية - وذلك حتى تزول الأزواجية القضائية التي فرضتها على مصر امتيازات الأجانب ونفوذ الاستعمار.

* وخارج نطاق العمل القضائي امتد نشاط قاسم أمين . .
فكتب في صحيفة «المؤيد» عدداً من المقالات دون توقيع . .
وأصدر كتابه «المصريون» - بالفرنسية - سنة ١٨٩٤ م . . يرد به
هجوم الدوق الفرنسي «داركور» على مصر والمصريين . .
كما أصدر «تحرير المرأة» سنة ١٨٩٩ م ، و«المرأة الجديدة» سنة
١٩٠٠ م .

كذلك شارك في نشاط «الجمعية الخيرية الإسلامية» ، وكانت
تنشئ المدارس للفقراء ، وتنهض بضروب من الخدمة
والمساعدات للمعوزين والمنكوبين .

وفي ١٢ أكتوبر سنة ١٩٠٦ م تولى سكرتارية الاجتماع الذي
عقد بمبزل سعد زغلول باشا ، والذي صدر عنه البيان الشهير
الموجه للأمة يدعوها للإسهام في إنشاء الجامعة الأهلية المصرية . .
وعندما تخلى سعد زغلول عن رئاسة اللجنة التي نيط بها أمر
الدعوة لإنشاء الجامعة ، بعد تعيينه ناظراً (وزيراً) للمعارف ، تولى
رئاسة اللجنة بدلاً منه قاسم أمين . . وكانت آخر أعماله العامة
ذلك الخطاب الذي ألقاه «بالمثوفية» ، بمبزل حسن زايد ، عن
الجامعة والتعليم الجامعي المرجو لمصر والمصريين . . فلقد ألقى
خطابه في ١٥ أبريل سنة ١٩٠٨ ، وفارق الحياة فجأة بعد ذلك
التاريخ بأسبوع ، أي في ليلة ٢٣ أبريل سنة ١٩٠٨ م . . وكانت
مصر تستعد للاحتفال بافتتاح الجامعة التي نهض في سبيل قيامها
بدور عظيم .

* أما منزل قاسم أمين وحياته الأسرية فلقد كانا متسقين مع مزاجه الهادئ وروح الفئاة وإحساسه الرقيق . . فهو قد تزوج فى سنة ١٨٩٤م من زينب، ابنة أمير البحر التركى أمين توفيق . . وكان صديقاً لوالد قاسم أمين . . وكانت قد أشرفت على تربية زوجته هذه، فى طفولتها وصباها، مربية إنجليزية . . وكان قاسم يقضى مع زوجته ويخصها من وقته بساعتين يومياً، وبشكل منتظم من الخامسة إلى السابعة مساء!

ولقد أنجب بنتيه: زينب، التى أحضر لها مربية فرنسية . . وجلسن، التى أحضر لها مربية إنجليزية.

* أما مكتبته فكانت تشغل من منزله ثلاث غرف . . ومع كتبه كان يقضى، يومياً وبانتظام، ثلاث ساعات من السابعة حتى العاشرة مساء!

* أما إجازته الصيفية فكان يقضيها مع أسرته بتركيا، حيث كان لوالد زوجته منزل هناك،

* * *

هكذا كانت حياة قاسم أمين، وكانت شخصيته . . فنان وأديب نحائحو الإصلاح الاجتماعى . . ومفكر يحترم رأيه، ويدافع عنه بإصرار، ويتصدى لأعتى الموجات وأعنف الأعاصير التى سببها له موقفه من قضية المرأة ودعوته إلى تحريرها، بدءاً من تحرير

دخوله إلى قصر الخديو بعد إصدار «تحرير المرأة»، إلى النقد والتهجم والسباب والالتهامات التي كبلت له من أغلب قطاعات الفكر ودوائر الثقافة وجمهرة الكتاب... إلى سعي فئات وأفراد من العامة والبلهاء والمتعصبين إلى إزعاج حياته الأسرية الهادئة، ظناً منهم أن دعوته إلى تحرير المرأة تبيح لهم اقتحام منزله والطلب إلى زوجته مخالطة من يريد الاختلاط!

ومع كل ذلك، وعثله كثير، عاش قاسم عمره القصير - بمقاييس السنوات - بروح الفنان، فأعطاه عمقاً ومنحه أبعاداً تخطت به حدود الزمن والسنوات.

وكما يقول الدكتور محمد حسين هيكल: لقد كانت «روح قاسم أمين روح أديب... كانت الروح العصبية الحساسة الثائرة، التي لا تعرف الطمأنينة، ولا تستريح إلى السكون، وكانت الروح المشوقة التي لا تعرف الانزواء في ركن للبحث والتنقيب، حيث تنسى نفسها وتستبدل بكنهها ما في حياة الكون وحركته من نشاط وجمال. بل كانت عيونه الواسعة تريد أن ترى جدة الوجود الدائمة تتكرر مناظرها فتطبع على صفحات نفسه وحياتها ألهاماً أكثر مما تؤدي المباحث الجافة منطقاً وجدلاً. وكانت هذه المناظر تذكي شعوره الخساس بجمال الحياة، وتدعوه إلى الحرص على متاعه بها وعلى دعوته غيره لهذا المتاع، وذلك لا يؤتاها إلا رجل فن جميل، لا يقف عند التلذذ لنفسه بنعم الحياة، بل يعبر لغيره عن معاني هذه التعم»^(١).

(١) «تراجم معصرية وغربية»، ص ١٥٣.

قسمات المنهج الاجتماعي

[إن أهم عامل له أثر في حال الأمة هو: حالتها الاقتصادية.. وهي لا تتغير بإرادة شخص أو مائة شخص، أو إصدار قانون أو مائة قانون.. بل بتغير الأسباب التي أوجدتها.

ولقد نظم الإسلام توزيع الثروة، وأعلن اشتراك الفقراء في ملكية أموال الأغنياء، فحل المشكلة الاجتماعية بنوع فريد من الجماعية، وانتراكية سامية سبقت أكثر النظم السياسية ثورية بأكثر من ألف عام.

إن النوع الإنساني، في كل مكان، هو نفسه، بأخطائه ومواطن ضعفه، وأيضاً بعظمته وزهوه.. والحركة المستمرة إلى جهة الترقى هي قانون الحياة الإنسانية.. ولن يقف ماضينا ولا حاضرنّا حائلاً بيننا وبين التقدم حسب هذا القانون الذي يسود الكون كله..].

قاسم أمين

من المعالم الهامة والإيجابية في فكر قاسم أمين وأثاره أن روح الفنان والأديب التي ملكت عليه كيانه ، وحددت رؤيته لكثير من القضايا والأشياء لم تطغ عنده على قوانين المنهج الاجتماعي الذي التزمه إلى حد كبير في درس وعلاج قضايا الإصلاح التي عرض لها . . بل إننا نستطيع أن نقول : إنه كان من أبرز كتابنا ومصلحيننا الذين وعوا بدور المنهج الاجتماعي في البحث وأهميته في قيادة الباحث والمفكر إلى أسلم النتائج وأصدق المقولات .

فهو يرفض مسلك أولئك الباحثين والمصلحين الذين يكتفون من البضاعة بما هو نظري ومنمق وبراق ، بصرف النظر عن الواقع الذي يطبقون إصلاحاتهم فيه . . وينته إلى عقم ذلك المذهب السهل الميسور لكل من يحسن التخطيط على الأوراق ، ثم يدعو إلى أن يكون الفكر وخطط الإصلاح مدروسة في ضوء إمكانات الواقع الذي نرجو له التغيير والتطوير . . يقول :

«نحن نفهم أن رجالاً يعيش في عالم الخيال ، يكتب في مكتبته على ورقة : أن ليس على النساء إلا أن يقرن في بيوتهن بحاليات الببال تحت كفالة وحماية الرجال !

نحن نفهم ذلك ، لأن الورق يتحمل كل شيء !

وإنما يجد الصعوبة رجل اعتاد أن يحل النظريات ويختبرها

بقياسها إلى الواقع ، فإنه إذا أراد مثلاً أن يحصل لنفسه رأياً في : ما هي حقوق النساء التي نحن يصدها؟ يجب عليه :

أولاً : أن يسوق نظره إلى الوقائع التي تمر أمامه ، أعني أن يطبق نظريته على الوقائع وينصورها في ذهنه منفذة معمولاً بها في مدينة ثم في إقليم . . ذلك عمل ليس بالسهل ، لأنه يحتاج إلى معلومات جمة ومشاهدات كثيرة .

فإذا توفر له ذلك كله لم يتيسر له أن يحكم في المسألة حكماً قاطعاً ، لأنه يعلم أن رأيه قائم على مقدمات ظنية ، فلا تكون نتائجها إلا تقريبية ، لذلك تراه دائماً على طريق البحث ، لا يركن إلى ما وصل إليه جهده إلا ليضعه قاعدة لعمل مؤقت ، ولا يأنف من تعديل رأيه بحسب ما يقتضيه الحال ويظهره العمل^(١) .

فهو في هذا النص الهام يحدد متطلبات المنهج الاجتماعي في البحث والدراسة :

- ١ - فلا بد من دراسة الواقع ، قبل التخطيط .
- ٢ - ولا بد من أن يكون الواقع عيائلاً في الذهن ونحن نضع التخطيط ، مائلاً بمعطياته القائمة ، ومائلاً متخيلاً في حال تطبيق التخطيط عليه وتنفيذه فيه .
- ٣ - ولا بد أن تكون الدراسة والتصور شاملة ومحيطاً بالواقع ككل ، وبدءاً من الجزء وانتهاء بالكل .

(١) «الأعمال الكاملة لقاسم أمين» ج ٢ ص ١٦٢ ، ١٦٣ .

٤ - ولا بد من اختبار مدى صدق المقدمات ، لأنها ظنية وفروض لا تثمر المطلق والنهائي ، بل النسبي والتقريبى .

٥ - ولذلك كله فلا بد من أن يكون البحث عملاً مستمراً ، كى نضع فى اعتبارنا المعطيات الجديدة التى تثمرها دراسة الواقع بعد التطبيق ، وهى المعطيات التى تسهم فى اختبار صدق المقدمات ، وتحديث التعديلات فى النتائج التى يصل إليها الباحثون . . . فنسبة المعرفة هنا تتطلب من الباحث أن «لا يأنف من تعديل رأيه بحسب ما يقتضيه الحال ويظهره العمل !» .

وقاسم أمين لم يحدد هذا المنهج ، لأنه نقله عن الفكر الأوروبى الذى درسه واستفاد منه . . لم يقف عند حدود الفهم والنقل ، بل لقد طبق هذا المنهج فى بحثه لكل القضايا الإصلاحية التى عرض لها .

فهو عندما قرأ هجوم «دوق داركور» على مصر والمصريين ، انفعل غضباً حتى أصابته الحمى ! ولم يجد علاجاً لمرضه إلا أن يرد هجوم الدوق . . ولكنه خلع انفعالاته ، بل وجاهد للحد من تأثير روابطه القومية والوطنية على فكره وتقييمه لواقع مصر قدر الإمكان - وإن كان لم ينجح . . وما كان له ولا لغيره أن ينجح فى طلب ما هو مستحيل ! لكنه حاول ويبلغ قدراً من النجاح حققته محاولته الواعية هذه . . وعبر عن منهجه الذى أهتم بدراسة الواقع ، رغم الانفعال وحساسيات الموضوع ، فقال : «ولقد

أطلت التأمل في أبناء وطني ، بل لقد بذلت جهداً أكبر مما يبذله الأجنبي في دراستهم والتعرف عليهم ، وأعتقد أنني نجحت في أن أكتشف أعماق وجدانهم»^(١).

ووعى قاسم أمين بضرورة دراسة الواقع وتحكيم معطياته في التخطيط ، والتنظير هو الذي جعله يفرق بين الأبحاث الجادة التي تستحق الاحترام وبين الانطباعات التي يكتبها عن مصر أولئك «السياح» العابرون للسبيل ، والباحثون - إلى جانب المتعة - عن القصص الغريب والنبأ العجيب ، بصرف النظر عن الحقيقة والواقع في المجتمع الذي يكتبون . . فيصف هذا اللون من التأليف بقوله : «إنني أعرف ، بخبرتي ، ذلك المنهج الذي يتبعه الأوروبيون في تأليف كتبهم ، فهم يعتمدون على ما يقدمه لهم الترجممة من مواد ، وكلما كانت هذه المواد رهيبة شديدة الغرابة ، كلما غلا ثمنها ، دون أن ننسى ما تقدمه هذه المواد من ضمان لنجاح الكتاب»^(٢).

وهو في نقده لكتاب «دوق داركور» عن مصر والمصريين يصنف هذا الهجوم في هذا اللون من ألوان التأليف ، فيقول : «إنني أفهم تمام الفهم دوق داركور ، لقد أعصى الشتاء في رحلة لم تنقصها المتعة ! وطالع عدداً من قصص كتاب الرحلات ، مهتماً أكثر بمن أساءوا في كتاباتهم إنني الإسلام - الذي يكرهه من أعماق قلبه - ورأى من شرفة فندق «نيو أوتيل» في عبر نافذة السيارة التي

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٤٢

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٥٢

كان يتجول بها، مجموعات من السكان الفقراء ذوي المظهر البسيط، وبهذه الطريقة ألف كتابه (١) .

فهذا المنهج الذي يهمل دراسة الواقع هو منهج مرفوض، ونتائجه مرفوضة. من قاسم أمين.

وفي الأفكار الإصلاحية التي تبنى قاسم أمين تطبيقها في عالم الأدب العربي نطالع كذلك إيمانه بهذا المنهج الاجتماعي، مطبقاً على هذا الحقل. فهو يدعو إلى العمل على إعادة المكانة المفقودة إلى هذا الأدب. مكانته القديمة التي كانت له عصر ازدهاره وازدهار حضارة أهله، وذلك بواسطة إصلاحين أساسيين هما :

١ - أن يصبح هذا الأدب انعكاساً للتغيرات التي يشهدها الواقع المعاصر.

٢ - أن بطوع هذا الأدب لما جد في المجتمعات الجديدة من عادات تعبيرية لم يعرفها الأسلاف، لا بد وأن تفرض أساليب جديدة للمعالجات.

وهو يعبر عن أفكاره تلك، فيقول : «إن الأمر في حاجة إلى عبثي يستطيع بنشاطه ومواهبه أن يعيد للأدب مكانته التي كانت له قديماً في المجتمعات الإسلامية، فيجعله يعكس هذه التغيرات التي ينض بها وضعنا الحالي، ويضوعه لعادات جديدة» (٢).

بل إن اهتمام قاسم أمين - المنهجى - بالواقع لا يقف عند هذه

(١) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٥٥.

(٢) المصدر السابق، ج ١، ص ٣٣٠.

الحدود، فهو يدعو - مثلاً في ميدان التربية - لأن تتخطى حدود الفهم النظري للمواقع، وتمارس القيم ممارسة عملية. . يدعو إلى معرفة تكون ثمرة للخبرة والممارسة، ولا يكتفى أصحابها بالتحصيل والاستيعاب. . فيتحدث عن هذه القضية، من خلال نقده للمواقع السائدة في ميدان التربية عند المصريين، فيقول:

"ومن الأسف أن المصري لا يزال يظن أن تربية الطفل عبارة عن وضعه في المدرسة، وأنه متى علم ولده ما كان يجهله من العلوم فقد أحسن تربيته وقام بما يجب عليه، مع أن التعليم هو في الحقيقة أقل فروع التربية شأنًا وفائدة.

نعم. . إنه قد يكون من النافع أن الولد يعرف القراءة والكتابة والحساب ويتعلم الجغرافية والتاريخ والهندسة، والفلسفة إذا شئت، ولو أنني أعتقد أن التعليم النظري لا يفيد الغلام فائدة محسوسة، خصوصاً إذا كان في السن التي يتلقى فيها العلوم العالية.

ولكن يجب على الآباء أن يعلموا أن التعليم وحده لا يفيد شيئاً إذا لم يكن مصحوباً بتربية قوية. . وذلك بتعويد الطفل لا على أن يفهم أن هذا الطيب طيب وذاك الخبيث خبيث، بل على أن يعمل الطيب ما قدر ويجتنب الخبيث ما استطاع؛ لأن إدراك الحسن حسناً والقبيح قبيحاً أمر سهل. . فالتمييز بين الفضيلة والرذيلة ليس بالشيء المهم في فن التربية، ولكن كله ينحصر في اكتشاف وإظهار وتنمية جميع الملكات الطيبة المخلوقة فينا، أو غرسها في نفوسنا، وتقويتها وإحيائها حتى تمسك في النفس بجذورها، فلا

تستطيع قوة قلعها بعد ذلك أبداً . . . والتربية بهذا المعنى لا يمكن أن
تكتسب في المدارس والمكاتب والقراءة والحفظ ، بل يجب
ممارستها»^(١).



ولو أن قسّمات المنهج الاجتماعي لدى قاسم أمين وقفت عند
هذه الملامح والحدود لكان ذلك كافياً في انتزاع الإعجاب به
والإكبار له ، خصوصاً إذا نحن راعينا عصره وظروف مجتمعه ،
ولكنه لم يقف بقسّمات هذا المنهج عند تلك الحدود ، وذلك
لسبب بسيط وعميق ، هو أن ذلك المنهج الاجتماعي ، والذي
تحدثنا عنه ، والذي آمن به قاسم أمين وطبقه في دراسته لقضايا
الإصلاح التي عرض لها . . . إن هذا المنهج كان ثمرة لإيمانه العلمي
بأن الكون بأسره إنما يخضع لنظام صارم وتحكمه قوانين لا تختلف
ثمراتها . . . فهناك وحدة في قوانين الكون ونظمه . . . وهناك وحدة
في قوانين تطور الإنسان عبر كل العصور وفي كل البيئات ، وهناك
وحدة في قوانين تطور المجتمعات .

وهذه النظرة العلمية تدخل المجتمعات الشرقية في دائرة التطور
البشري العام ، وترفض موقف أولئك الذين يريدون استثناء هذه
المجتمعات من التأثير بنهضات الآخرين ، بحجة الزعم بأنها ذات
خصوصية تستعصى على قبول القوانين العامة والموحدة لتطور
الكون والمجتمع والإنسان .

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢١٠ ، ٢١١ .

وقاسم أمين لا يطرح هذه القضية كأمر فكري ونظري مجرد، وإنما ينبه إلى أن وعيها هو أمر ضروري لنا، ونحن نعالج كتابه التاريخ وتفسير أحداثه، وأيضاً ونحن نعالج قضايا الإنسان المعاصر وإصلاح عيوب مجتمعاته، فكما تحكم القوانين العلمية الظواهر الطبيعية كذلك فإن للظواهر التاريخية والاجتماعية والإنسانية قوانينها التي تحكمها، والتي لا بد من وعيها، لمن يتصدى لهذه الظواهر بالدراسة والعلاج، يقول بصدد الحديث عن مهمة المؤرخ والمصلح . . . ذلك «أن المؤرخ يشرح أطوار أمة في زمن من عصورها، بتعريف أخلاقها وعوائدها ونظاماتها وتربيتها ووسائل معيشتها، وحالتها الاقتصادية والسياسية، داخلها وخارجها، وما هي عليه من درجة الأفكار والعلوم والآداب والفنون، ويبين من خلال ذلك ما طرأ عليها من الحوادث المهمة . . . ولا يعتنى إلا قليلاً بسرد الحوادث - كما يفعله مؤرخونا - وبهذه الطريقة صار التاريخ من أهم العلوم التي موضوعها الإنسان الاجتماعي» .

هكذا يحدد المنهج الاجتماعي في كتابة التاريخ . . . فليست الحوادث والوقائع هي الأسباب، بل هي المسببات، والقاعدة التي تنصر ما نسميه «تاريخاً» هي الأحوال الاقتصادية والسياسية والفكرية والعادات والتقاليد ووسائل المعيشة . . . إلخ . أما كتابة التاريخ كركام من الأحداث - على عادة مؤرخينا، كما يقول - فهو منهج خاطئ يخرج التاريخ عن مكانه الطبيعي كواحد «من أهم العلوم التي موضوعها الإنسان الاجتماعي!» .

وكما يجب ذلك على المؤرخ ، يجب أيضاً على الساسة والمصلحين وكل المشتغلين بالمسائل العامة . . « فكما يفعل المؤرخ في الماضي يفعل الكتّاب المشتغلون بالأحوال العمومية في الحال ، فيدرسون زمانهم درساً تاماً ، ويقفون على كيفية ارتباط حالهم بماضيهم وأخلاقهم وعاداتهم ومعتقداتهم وسياساتهم ، حتى يتبين لهم ما هم عليه بكيفية لا تقبل الشك .

إن هذه الأمور إنما هي العليل التي أنتجت تلك الحالة ، وإن تغييرها لا يكون بالصدفة ، وإنما هو بتغيير يحدث في تلك العوامل المؤثرة ، إذ السبب والمسبب دائماً متلازمان ، عقلاً وعادة ، فنى وجد أحدهما وجد الآخر حتماً ، وهذا نظام المولى سبحانه وتعالى في العالم كله ، فليس في الكون شيء وجد بلا موجد ومسبب ، وأضح أو خفى ، معروف الآن أو يكشفه المستقبل .

وبعد هذا التأكيد على أن تطور المجتمعات وتغييرها إنما تحكمه قوانين ، تتطلب تغيير الأسباب والقواعد المتحكمة إذا شئت تغيير المسببات والأبنية العلوية والتابعة - ينه قاسم أمين إلى أن خفاء هذا القانون في الظواهر الإنسانية لا يعنى تخلفه فيها ، لأنه عام ، حتى وإن تميزت هذه الظواهر بأسباب لا تجعله واضحاً وجلياً كما هو حاله في ظواهر الطبيعة .

«إن هذا القانون الإلهي وإن كان لا يظهر بوضوح تام في علوم الهيئة الاجتماعية ، كما هو ظاهر في العلوم الطبيعية :

أولاً : لأن معارفنا المختصة بالمجتمع الإنساني هي ، في الحقيقة ، في أول نشأتها ، وعلى حداثة عهدها .

وثانيًا: لأن الحادثة الاجتماعية لا تتكون من سبب واحد، بل يشترك في مقدماتها عدة أسباب متنوعة.

وثالثًا: لأنها تظهر دائمًا أنها تحت إرادتنا، وأن لنا سلطة في إيجادها وتعديلها.

ولكن يكون من الخطأ الجسيم أن نعتقد أن الجسم الاجتماعي ليس خاضعًا لذلك القانون العام كغيره^(١).

ثم يستطرد ليؤكد على أن هذه الحقيقة العلمية قد قررها الله في قرآنه، فيذكر أن آية «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» (الرعد: ١١) هي أساس لذلك القانون، وبها يظهر للقارئ كيف توافقت شريعتنا مع العلم في هذه القضية، كما تنطق معه دائمًا لو كان القائمون بشئونها رجالاً أكفاء، يخدمونها بجد ويفهمونها بأصالة وإدراك^(٢).

ولقد كان طبيعيًا أن يؤمن قاسم أمين بالتطور والتقدم كقانون عالمي، ليس في نطاق الظواهر الطبيعية فقط، كما اشتهر عند شارلز داروين (١٨٠٩ - ١٨٨٢ م) في ذلك العصر، بل وفي الظواهر الخاصة بالحياة الإنسانية، ذلك «أن هذا التغير والتحول، بل الحركة المستمرة إلى جهة الترقى، هي قانون الحياة الإنسانية، التي خلقها الله ووهبها أعظم وسائل الارتقاء. وبهذا القانون خرج الإنسان من المعيشة البهيمية، التي لا يزال عليها إخواننا المتوحشون من سكان إفريقيا وأمريكا، ممن وصفهم العلماء بأنهم

(١) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٠٩.

قردة متمدنة ، عندما شاهدوا أن المسافة بينهم وبين الحيوانات اليهم أقل من المسافة التي بينهم وبين أناسي أمة متمدنة!»^(١).

ولقد استفاد قاسم أمين من إيمانه بقانون التطور ، ووحدته وفاعليته الأزلية الأبدية ، فاستخدم حقائقه أسلحة في الصراع ضد فكرية الغرب الاستعماري الذي حاول ، في سبيل السيطرة عليّ والاستغلال لنا ، أن يوهننا أن قانون التطور والتقدم والارتقاء ، في المجتمعات ، إنما مجال صلاحياته وصلاحه هو المجتمعات الغربية المتقدمة ، أما نحن الشرقيين فإننا ومجتمعاتنا خارجون عن ميدان تطبيق هذا القانون !

رد قاسم أمين هذه الفرية عندما تحدث عن «أن تاريخ تأسيس الدول في العالم موضوع تأملات متصلة ، وهو يؤكد حقا أن النوع الإنساني ، في كل مكان ، هو نفسه ، بأخطائه ومواطن ضعفه وبؤسه ، وأيضاً بعظمته وزهوه ، والقانون الأبدى الذي يحول المادة يحول أيضاً البشر والأنظمة ، ولا تستطيع قوة مقاومة هذا القانون الذي لا مهرب منه ، والذي يحكم حركة التقدم البشرى ، والإنسانية تعبر عن نفسها في كل مكان بنفس الطريقة ، وتتبع نفس المسيرة .

وقد بدأت الشعوب حياتها بالحرية ، وستنتهي إلى الحرية . غير أنها فيما بين هاتين القسرتين مقضى عليها أن تعاني محنة الاستبداد ، الذي يبدو أنه ضرورى لاختبارها ، ما أسعد الدول التي يكتب لها ، بعد هذه المحنة ، البقاء!»^(٢).

(١) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٠٩ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٧٧ .

وقاسم أمين لم يكن بذلك يفند ترهات مفكرى الغرب
الاستعماريين وحدهم، بل وينقض حجج القوى الوطنية المحلية
التي تعادى التطور على وهم أن بالإمكان إيقاف قانونه عن
العمل، والعودة إلى الماضي أو الحفاظ على بقايا آثاره التي تشد
المجتمعات الشرقية إلى الوراء.

وهو في سبيل الرد على هؤلاء وهؤلاء يضي متسائلاً ليقول:
" . . . إننى - بكل حسن نية - لا أرى لماذا يقف ماضينا - كما أرى،
أو حاضرتنا، كما يراه دوق داركور - مهما كان سيئاً، حائلاً بيننا
وبين التقدم حسب قانون التطور نحو الكمال، وهو القانون الذى
يسود حركة الكون كله؟" (١).

وكما أثمر إيمان قاسم أمين بهذا المنهج الاجتماعى تلك الثمرة
التي جعلته يرى الأسباب فى علاقاتها بالمسيبات، والتي جعلته
يشير إلى السبل العلمية المثلى فى دراسة ظواهر التاريخ والمجتمع
والإنسان . . . فهى أيضاً قد أثمرت تحذيره من الظن بأن التغييرات
التي تحدث فى الأبنية العلوية للظواهر الاجتماعية قادرة على
إحداث تطور حقيقى فى هذه الظواهر . . . فتغيير الواقع
الاجتماعى هو الذى يحدث التغيير الحقيقى، وليس تغير القوانين
والقيادات هو الفاعل الحقيقى فى تلك المجتمعات . . . وعن هذه
الحقيقة الهامة يقول: "إن حالة الأمة، فى السعادة والشقاء أو
التقدم والتأخر، ليست حالة توجد أو تتغير بحكم الصدفة، بل

(١) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٥٦

إنها نتيجة لازمة لا تتغير إلا إذا تغير ما بنفس هذه الأمة . .
والحالة الاجتماعية متى عُرِف كيف وُجِدت يُعرف كيف تزول .
فهى لا تتغير أبداً إلا بحال آخر ، بمعنى أن إرادة شخص أو مائة
شخص أو إصدار قانون أو مائة قانون ، كل ذلك لا يؤثر فيها
بشيء محسوس (١) .

تلك كانت درجة إيمان قاسم أمين بأهمية القاعدة المادية
للمظاهر الاجتماعية . وكيف أن تغييرها هى السبيل الحقيقية
لأحداث التغييرات الحقيقية والتطورات ذات القيمة التى يسعى
الإنسان لإنجازها كي يتطور بمجتمعه وواقعه إلى الأمام .



بل لقد خطا قاسم أمين فى هذه السبيل ، إلى الأمام ، خطوات
أكثر تحديداً وأشد عمقاً وأنضج فى باب الإيمان بالمنهج الاجتماعى
فى البحث والدرس والإصلاح . فوجدناه يركز على أهمية
العامل الاقتصادى والأسباب الاقتصادية ، ويرز دورها المتميز فى
تحديد الصورة العامة للمظاهرة ، ويؤكد على فعاليتها فى التطور إذا
ما شملها التغيير والتطوير .

فهو عندما فكر فى كتابة مقالاته التى نشرها فى «المؤيد» حدد
منهجه ، ونبه على أن عينه ستكون أكثر تركيزاً على العوامل
المؤثرة فى المجتمع . بهدف إلقاء الضوء على السبيل الحقيقية
للتغيير المنشود . . وبصدد حديثه على منهجه هذا كتب يقول :

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٩٠

« . . شرعت في هذا العمل . . باحثاً عن حالتنا الراهنة ، لا من جهة السياسة ، فإنني لست مشتغلاً بها إلا من حيث كوني مصرياً أحب الوقوف على الحوادث التي تجري في وطني ، وللسياسة الآن قائمون ، والحمد لله ، بخدمتها واستخدامها أكثر مما يحتاج إليه الحال . بل من الجهات الأخرى ، كالمعيشة الاقتصادية والتربية والعوائد والدين . . »^(١) .

فهو هنا يضع عامل الاقتصاد و« المعيشة الاقتصادية » قبل عوامل : التربية ، والعوائد ، والدين .

وفي موطن آخر يزيد هذا الموقف حسماً ووضوحاً ، عندما يقول : « إن أهم عامل له أثر في حال الأمة هي حالتها الاقتصادية . . ومن الأسف هذه الحال الاقتصادية ليس في إمكان أحد من الناس أن يحكم عليها ويديرها كيف يشاء »^(٢) .

وهو هنا يشير - بعد تقريره أن الحالة الاقتصادية هي أهم العوامل تأثيراً في حالة الأمة والمجتمع - يشير إلى أن لهذا العامل قوانينه العلمية التي لا بد من الوعي بها ، لأن تصور تغييرها بالأهواء أو التصرفات الذاتية والعلوية أمر خارج عن الإمكان .

فإذا انتقل للحديث عن المرأة وجدناه ينسب إلى دور العامل الاقتصادي في أوضاعها الراهنة ، إن سلباً أو إيجاباً .

فلعامل الاقتصادي الدور الأغلب في انحراف المرأة الخلقية

(١) المصدر السابق ، ص ١٩١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٦٩ .

هكذا يتكشف لنا قاسم أمين عن مفكر ومصلح امتاز بالإيمان والاستخدام لذلك المنهج الاجتماعي الذي أعانه على دراسة العضلات التي عرض لها بالدرس والإصلاح.

فهو قد أكد على ضرورة الربط بين الفروض والأفكار والنظريات وبين الواقع والممارسة والتطبيق . . . وذهب في ذلك مذاهب ، تكشف عن عمق وأصالة علمية كبيرة .

وهو قد وعى القوانين التي تحكم الظواهر : طبيعية كانت أو اجتماعية أو إنسانية . . . واستخدم وعيه في تسديد خطاه كباحث ومصلح ، وفي رد سهام الأعداء الذين كانوا يناصبون وطنه وأمتة العداوة .

وهو ، أخيراً ، قد أدرك أهمية القاعدة المادية للمجتمع وحياته الاقتصادية على وجه الخصوص ، ودور هذه الحالة في أية عملية للتغيير أو التطوير ، يراد بها الانتقال بهذا المجتمع خطوة أو خطوات إلى الأمام .

المجتمع الذى يشربه

[إن التربية هي: رأس مال لا يفنى...]

وحياة كل أمة مرتبطة بمآلاتها.. والتجارة
هي علم الثروة الحقيقية.. وليس الغرض أن
يجتمع الإنسان المال حياً في المال، بل المراد أن
يكون لديه طموح شريف إلى العلاء.

والاستبداد أصل كل فساد في الأخلاق.
والحرية الحقيقية تحمل إبداء كل رأى، ونشر
كل مذهب، وترويج كل فكر..

فكم من الزمن يمر علينا قبل أن تبلغ هذه
الدرجة من الحرية؟!]

قاسم أمين

كان قاسم أمين واحداً من المصلحين البارزين في مدرسة
الاستنارة واليقظة والتنوير في مصر والشرق العربي والإسلامي ،
تلك المدرسة التي تكونت أول ما تكونت بمصر في النصف الأول
من القرن التاسع عشر ، وراندها هو رفاعة رافع الطهطاوي
(١٨٠١ - ١٨٧٣ م).

وكان الموقف الاجتماعي لهذه المدرسة يستهدف التطور
بالمجتمع من مرحلة الإقطاع ، والانتقال به إلى المرحلة
البورجوازية . بكل ما تعني هذه المرحلة من استنارة ومواءمة بين
تدين الشرق وعلمانية الغرب وعقلانيته - مستفيدين في ذلك
بما للإسلام من مواقف ومبادئ تنصير للعقل وترفض الكهنوت
والسلطة الدينية - وبكل ما تعني هذه المرحلة البورجوازية
كذلك من إعلاء لشأن « العمل » ونقد لقيم التبطل التي تميزت
بها مجتمعات الإقطاع وكبار الملاك ، والدعوة إلى إشاعة
التنافس والطموح ، وتنبيه الناس إلى أهمية التجارة والصناعة
وتكوين الشركات ، وخوض غمار المنافسة والمخاطرة في هذه
الميادين ضد أوروبا التي كانت تزحف لنهب ثروات المجتمعات
الشرقية ، سواء في صورة شركات وجاليات ومغامرين ، أو في

ظل جيوش وسلطات احتلال تحمى وتقن ذلك النهب والاستنزاف^(١).

ومن هنا، فإننا نجد لدى مصلحي مدرسة التنوير هذه، عندما يكون حديثهم عن الموقف الاجتماعي، قاسماً مشتركاً يتمثل في أمرين محددين:

أولهما: نقد بقايا المجتمع الإقطاعي القائم، وتسفيه قيمه، والازدراء على الأعراف التي سادت مجتمعات كبار الملاك... وكان كثير منهم تبصر يومئذ من المنصرين والنشراكسة والأتراك. وثانيهما: الدعوة إلى إحلال قيم المجتمع البورجوازي - وكانت هي الأكثر تقدماً بالنسبة لمجتمع الإقطاع وكبار الملاك - الدعوة إلى إحلالها كبديل لقيم المجتمع القديم.

ونحن إذا نظرنا في الفكر الاجتماعي لقاسم أمين، وبحسنا عن نوعية المجتمع الذي بشر به مواطنيه، وجدناه يدعو إلى هذين الأمرين المحددين بوضوح وجلاء.

فهو يوجه نقده إلى المجتمع القائم، ويعيب عليه ضعف طبقة البورجوازية، التجارية والصناعية فيه، ويسفه من الهالات التي بها، هذا المجتمع فئة الموظفين، لأنهم بلا سند اقتصادي يضمن لهم لقمة العيش إذا ما تأخرت عنهم المرتبات! ومن ثم فلا دور لهم في الإنتاج والتطور الاقتصادي للمجتمع الذي يخدمون

(١) انظر الفصل الذي كتباه عن الفكر الاجتماعي لرفاعة الطهطاوي في نقديتنا لأعماله الكاملة، ج ١، ص ١٧٥ - ٢٠٠.

حكومته . . . ويوجه سهامه إلى الوضع المزرى لطبقة كبار الملاك
الذى أغرقوا أنفسهم في التبطل وكبلوا طاقاتهم بالسفاهة والتبذير
بعد أن أغرقوا ممتلكاتهم الزراعية في الديون .

يوجه قاسم أمين انتقاداته هذه ، فيقول :

«إن مصر بلدة فقيرة جداً ، نصف أهلها ، وهم الفلاحون ،
يعيشون بالشيء الناقص الذى يقى الحى من الموت جوعاً ، والنصف
الآخر ينقسم إلى قسمين :

الأول : يشمل التجار والصناع . . وهؤلاء ليس فيهم شخص
واحد يقال عنه : أنه مالى ملى !

والآخر : يحتوى على الموظفين وأرباب المعاشات ، وهم
الطبقة المتظاهرة بحالة اليسار ، نوعاً ما ، فى معيشتهم ، ولكن
أغلبهم إن حيل بينهم وبين مرتبتهم شهراً واحداً وقعوا فى العسرة
والضنك الشديد !

أما أرباب الأعيان ، من الذوات والعمد والمشايخ والأعيان فى
البلاد ، فحالهم كحال «راييل» ، المؤلف الفرنساوى المشهور إذ
قال فى وصيته : «إني لا أملك شيئاً ، وعلى ديون كثيرة ، وأوصى
ببقية ما أملك للفقراء» !! والبلد الذى يكون أهله فقراء ، مثلنا ، لا
يمكنه ، مادام فقراً ، أن يؤمل خيراً فى المستقبل ، لأن حياة كل
مملكة مرتبطة بتاليته ، إذ بالمال يتم كل شيء ، وبغير المال لا يتم
شيء مطلقاً»^(١) .

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٩١ ، ١٩٢ .

وفى موطن آخر، يسلط هجومه على قيم الكسل والتبطل والزهو والتواكل التى تسود المجتمع القديم، ويعلل انتشار هذه القيم المناهضة للطموح والمنافسة بسيادة الاستبداد السياسى الذى قهر ملكات الناس وكره إليهم استثمار طاقاتهم، عندما أيقنوا أن المستبدين هم الذين يجنون ثمار الطموح والاجتهاد، ومساعد الاستبداد فى ذلك سوء التربية وانتشار الفكر الضار والمعوق لتطور المجتمعات.

يتحدث قاسم أمين فى ذلك عندما يعرض لمكان الإنسان المصرى من "العمل" و"الطموح" فيقول: «إن المصرى طماع (طموح) كغيره، وليس عنده من الزهد ما ليس لغيره، ولكنه مع ذلك لا يحب الشغل ولا ينشط لعمل فيه رزقه، فهو إذن يحب أن تظوره السماء ذهباً وأن تنبت الأرض فضة، يحب أن يكون أغنى الناس، على شرط أن لا يتعب جسمه ولا يجهد فكره! والسبب فى سقوطه هذا أمران:

الأول: سوء معاملة الحكومات السابقة له، فإنها غدرها وظلمها أضاعت الأمانة والثقة اللتين بدونهما لا تظهر الابتكارات الشخصية، ففقد المصريون بذلك ملكة الإقدام على العمل والمخاطرة فى الشغل.

والثانى: سوء تربيته، فإن عدم تشغيل الجسم وتحريك الأعضاء والجلوس ساعات، بل وأياماً، على المقاعد والمراتب والمصاطب، وعدم التعود على استعمال وظيفة المخ، وترك النظر فى الأشياء، مع شدة التمسك بالأقوال والأمثال المثبطة لئلا يهملهم المسئلة للعزائم.

وتكرار سماع القصص والأحاديث التي وضعت في الأصل
لتسلية الفقير وإزالة الأحزان عن الضعفاء قليلي الحول والخيلاء .
ولكن غشيتنا جهالتنا ، وألفيناها قد اتفقت مع كسلنا وخمولنا
فنشرناها وروجناها ، وحشيناها ووشيناها ، حتى تشربت بها
أرواحنا وعقولنا»^(١).



وبدلاً من هذه القيم التي كانت لها السيادة والانتشار في ذلك
المجتمع الإقطاعي ، بشر قاسم ، كغيره من مصلحي مدرسة
التنوير ، بقيم المجتمع الجديد . فهاجم الزهد والقناعة والرضا
بالقليل ، ودعا إلى الطموح وطلب المزيد والمزيد مما هو مشروع .
وقال وكتب مؤكداً أن «من انبديهي أن الإنسان لا يشتغل ليعيش
فقط عيشة الكفاف ، لأنه لو كان هذا داعي الفطرة البشرية لما كان
التنافس في المزيد . فعلى الإنسان أن يسعى ، والحالة هذه ، لتحسين
حالته المادية والأدبية . فإن كان يكسب في اليوم قرشين ، فعليه أن
يجتهد في توصيلها إلى خمسة ، ثم إلى عشرة ، وهكذا .

وليس الغرض . . من تحسين الحال ، على هذه الطريقة ، أن
يجمع الإنسان المال حباً في المال ، بل المراد أن يكون عند كل واحد
طموح شريف إلى العلاء ، ولا يكون له ذلك إلا إذا سعى في
استزادة موارد كسبه ، ليتسنى له أن يحسن غذاءه ومنيبه
ومسكنه ، وأن يستعمل ما يزيد بعد ذلك على حاجاته المادية في

(١) المصدر السابق، ج ١ ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

ترقية عقله وتربية أولاده بالرياضة والتعليم والسياحة، وأن يأتي من الأفعال النافعة لهيئة المجتمع ما يغبط غيره على فعله^(١).

وفي مواجهة القيم التي تمجد التبطل والكسل و"الراحة"، يشير قاسم أمين «بالعمل» المنتج، وذلك من خلال نقله لشكائب الناس على «العمل» كموظفين في الجهاز الحكومي، مع أنه «لو نذكر الناس أن الشرف والمجد لا يصادفان في طائفة الموظفين إلا بنسبة قليلة جداً، وأن كل إنسان قادر على أن يرقى نفسه بنفسه، وأن يعلو على أكبر منك في الدنيا بفضيلته وعلمه، لما رأى ورأوا في انفصاله من خدمة الحكومة إلا حادثة اعتيادية لا تزيده ولا تنقصه شيئاً!»^(٢).

والتعليم... يعلم قاسم أمين قومه بأنه أكثر من معارف مجردة تُطلب لذاتها، فإن له دوراً في تنمية الحياة... بل لقد تحدث عنه على أنه «استثمار» رابح بمقاييس «الاستثمارات» والأرباح... ومن هنا كان «كل ما يصرف في سبيل التعليم والتربية، كالدراصة ومطالعة الكتب والجرائد والسياحة، لازم... إنه لا يجوز مطلقاً الاستغناء عن صرف الأموال في هذه السبيل، كما لا يمكن الاستغناء عن الغذاء الذي هو قوام الحياة... لأن التربية هي رأس مال لا يغنى، أما المال فما أقرب ضياعه، وخصوصاً في يد الغبي الجاهل!»^(٣).



وكما سبقتنا إشارتنا فلقد كانت قيم المجتمع الإقطاعي تعلى

(١) المصدر السابق، ج ١، ص ١٩٦، ١٩٧.

(٢) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٤٢، ٢٤٣.

(٣) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٠٦.

من قدر كبار الملاك بالورثة، والأثرياء بالورثة، وترفع شأنهم الأدبي والاجتماعي فوق شأن التجار والبورجوازية التجارية التي يعمل أهلها بأيديهم وينمون ثروتهم وثروة المجتمع. . . ولذلك وجدنا قاسم أمين يصفه من فكر كبار الملاك ويسخر من «شرفهم ونبيلهم» المزعومين، ويعلى من قدر هذه البورجوازية التجارية التي كانت في دور النشأة والتكوين، فيتحدث كيف «كان المصريون، إلى عهد غير بعيد، ينظرون إلى التجارة بعين الاحتقار، ويحسبون أنها مهنة لا تتفق مع الشرف والاعتبار، وإلى الآن لا يزال هذا الزعم متبسطاً على عقول بعض الأمراء والذوات الذين متى توشحوا الكساوى المؤشاة بالذهب، ووضعوا النشانات على صدورهم، وعلقوا في مناطقهم السيوف تجر على جوانبهم إلى الأرض، تخيلوا أنهم من إنسانية أخرى أعلى من إنسانية هؤلاء التجار الذين يشتغلون بأيديهم. . . وهم يرون كل خدمة غير «أميرية» وكل حرفة حرة وكل عمل لا يتعلق بالحكومة هي أشياء لا يليق الاشتغال بها. ولهذا كله لم يشتغل منا حتى الآن بالتجارة إلا فئة قليلة، برهنت على إرادة وإقدام وأصالة رأى تستحق عليها ثناء الأمة المصرية بأسرها.

ولو قارن أى إنسان، لم يعمه الجهل، بين هؤلاء التجار الذين دخلوا ميدان الحياة وبين أولئك الذين منبع ثروتهم، في الأغلب، العطايا والمنح التي كانت تمطر عليهم بسبب كلمة وافقت المزاج، أو لسبب خدمة خصوصية أو خلق مقبول أو رذيلة محبوبة لرأى أى فريق يحق له أن يعجب بنفسه أو يحتقره الآخر!»^(١).

(١) المصدر السابق، ج ١، ص ١٩٨، ١٩٩.

ولقد كان قاسم أمين يعي جيدا أن ضعف البورجوازية التجارية الوطنية يترك المجال فسيحا وسهلا للنشاط التجاري الذي يقوم به الأجانب والنازحون إلى بلادنا، فأخذ ينه قومه إلى قيمة التجارة كحرفة، بل وكعلم من أشرف العلوم، لدى الدول الأوروبية المتقدمة والاستعمارية، ويستنفر أبناء وطنه لمزاحمة الأوروبيين في هذا الميدان. فأهاب «بالآباء أن يعدوا أبناءهم إلى غاية الوصول إلى السعادة وأن يفتحوا أمامهم أبواب الآمال، لأنها أبواب الثروة الحقيقية، وأن يعطوهم الوسائل للحصول عليها، وأول شيء يجب أن يلتفتوا إليه اليوم هو التجارة».

إن الأوروبيين يجمعون الأموال الهائلة. «لأنهم فهموا أن التجارة هي علم الثروة، وهي علم حقيقي لا يثقل في الفضل عن أشرف العلوم، ويدرس في المدارس، ويتم بالاختبار والعمل»^(١) وأنت أيها المصري البطال، ابن البلاد، وأدرى بما فيها، ولك فيها القريب والحبيب، فلماذا لا تفعل كما يفعل الغرباء النازحون إلى بلادنا؟^(٢)

كما يلمس دور المصالح الاقتصادية، والتجارية منها خاصة، في الصراع العالمي بين الدول الاستعمارية المتنافسة، ويورد نبوءة الساسة بقيام الحرب العالمية الأولى، وذلك قبل حدوثها بما يقرب من العشرين عاماً! وذلك عندما يكتب فيقول:

«إن أم أوروبا قد وجهت التفاتها إلى المسائل الاقتصادية

(١) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٠٠.

(٢) المصدر السابق، ج ١، ص ١٩٥.

واعتناءها بها كل الاعتناء . فأنشأت نظارة - (وزارة) - للشحارة ،
والصناعة ، وللمستعمرات ، وأكثرت من إنشاء المدارس التجارية
والصناعية ، وتهافتت على وسائل الاستعمار ، وصارت كل أمة
تراحم الأخرى في هذه السبيل . . . حتى أن رجال السياسة صاروا
يعتبرون أنه لا بد من الحرب يوماً بين إنجلترا وألمانيا ، لأن المنافسة بين
الأمتين في جميع أنحاء الدنيا أوصلتهما إلى درجة اعتقاد أن
إحادهما لا يمكن أن تستمر في طريقها إلى إذا سحقت الأخرى ! .

ثم يستطرد ليقزع الأسماع بأن البلاد الضعيفة المستعمرة ، ومنها
مصر ، هي موضوع التنافس والصراع المحتدم بين هذه القوى
الاستعمارية . وأن النهضة هي سبيل إفلاتها من مصيرها الأليم .
فيقول : «إننا نحن المصريين لا شغل لنا إلا التفرج على
المنافسين . . . والحقيقة أننا نحن موضوع تنازعهم ، وسبب
مشاكلهم . نحن النخمة الدسمة التي يريد كل منهما - (الإنجليز
والألمان) - أن يتلعبا في جوفه !» (١) .

إن قاسم أمين يدعو إلى مجتمع يكثر فيه الأثرياء الذين
يحصلون ثرواتهم بالعمل ليل نهار ، ويتمنى لمجتمعه أن يكون مثل
تلك المجتمعات التي توصلت أممها «إلى اقتناء الثروة» وكثر فيها
الأغنياء المليون الذين أصبحوا يتعاملون بالملايين . كما نحن
نتعامل بال عشرات والمئات ! .

ثم يضيف متحفظاً على طرق جمع الثروة ، فينبه أن طريق
العمل يجب أن يكون هو السبيل لتحصيلها . قائلاً : « . . . ولكن

(١) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٩٢ .

الشيء المهم، الذى أرجو ملاحظته، هو أن كل ثروة من هذه الثروات الهائلة هي نتيجة عمل صاحبها. إنه يشتغل ليكسب، يشتغل دائماً، يشتغل فى النهار، ويفكر فى شغله بالليل^(١).

فهو داعية للتطور الرأسمالى، ومناضل من أجل إزالة العوائق الإقطاعية من طريق هذا التطور، ومبشر بقيم المجتمع البورجوازي. ولقد كان هذا الطريق، بالنسبة لمجتمعه وعصره، من أكثر الطرق قدرة على تنمية المجتمع وتطويره وتقدمه فى ذلك التاريخ.



وإذا كانت هذه هي الدعوة التى بشر بها قاسم أمين فيما يتعلق بالقاعدة المادية للمجتمع الذى نقده، والذى بشر به، فإنه قد صنع، فى إطار البناء الفوقى للمجتمع، ما يتسق مع هذه الدعوة كل الاتساق. فهو قد هاجم الاستبداد، الذى كان سمة للحكم الشرقى الفردى الإقطاعى. ودعا إلى الحرية كما عرفتتها المجتمعات البورجوازية الليبرالية فى أوروبا، وطالب بالحياة النبوية فى وقت مبكر جداً، إذا ما قيس بالأصوات التى ارتفعت بهذا المطالب بعد هزيمة الثورة العرابية واحتلال الإنجليز للبلاد.

فهو يتحدث عن «أن الاستبداد أصل كل فساد فى الأخلاق...»^(٢).

ويطالب بأن تكون الحرية فى الاعتقاد، وفى التعبير عن

(١) المصدر السابق، ج ١ ص ١٩٢، ١٩٣.

(٢) المصدر السابق، ج ١ ص ٢٢٠.

المعتقدات مصونة ومكفولة . بل ومقدسة ، فهما تكن الآراء والمعتقدات التي يعتنقها الناس ويعبرون عنها . . يقول : « ذلك لأن الحرية الحقيقية تحتمل إبداء كل رأى ، ونشر كل مذهب ، ونرويج كل فكر . . في البلاد الحرة قد يجاهر الإنسان بأنه لا وطن له ، ويكفر بالله ورسله ، ويطعن في شرائع قومه وأدابهم وعاداتهم ، ويهزأ بالمبادئ التي تقوم عليها حياتهم العائلية والاجتماعية ، يقول ويكتب ما شاء في ذلك ، ولا يفكر أحد ، ولو كان من ألد خصومه في الرأى ، أن ينقص شيئاً من احترامه لشخصه ، متى كان قوله صادراً عن نية حسنة واعتقاد صحيح » .

ثم يتساءل : « كم من الزمن يمر على مصر قبل أن تبلغ هذه الدرجة من الحرية ؟ » (١) .

وهو ينبه إلى أمر هام جداً عندما يربط بين احترام المجتمع للفضيلة ومقتة الرذيلة وبين قيام رأى عام قوى في هذا المجتمع . إذ « لا يمكن أن تصبح الفضيلة مطلوبة مرغوباً فيها ، والرذيلة ممقوتة مبغضة إلى النفوس إلا إذا أحس الناس بقوة حكم الرأى العام وسلامته » (٢) .

فلا المواعظ والخطب ، ولا الوصايا والتحذيرات بفاعلة شيئاً ذا قيمة في إعلاء شأن الفضيلة وتخفيض منزلة الرذيلة ، كما يفعل ذلك قيام الرأى العام صاحب الحكم القوى والسليم .

(١) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٦٤ ، ١٦٥ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٢٦

ثم يتوج قاسم أمين فكره الديموقراطي بالدعوة إلى الارتقاء من المجالس البلدية والمجلس التشريعي الاستشاري الذي أقامته سلطات الاحتلال الإنجليزي بديلاً عن المجلس النيابي الذي حلته بعد هزيمة الثورة العراقية . . . يدعو قاسم أمين إلى الارتقاء خطوات من هذا النظام الذي مرت عليه عشر سنوات، إلى نظام المجلس التشريعي البرلماني غير الاستشاري . . . فيكتب في سنة ١٨٩٤م قائلاً: «لقد اكتسب اليوم المجلس التشريعي ثقة كبيرة لا يمكن نكرانها، حتى أن قادتنا يستلهمونه أفكارهم، كما باتت كثرة من المصريين المعتدلين، وأنا واحد منهم، ترى أن هذه السنوات العشر تمثل تدريباً كافياً، وأن مصر بعد ألفتها للتمثيل القومي قد أصبحت جديرة بأن يكون لها مجلس نواب لا يكون استشارياً. فقط، لقد نضجت مصر بما يتيح لها عمل هذا الإصلاح. غير أننا نود بالطبع نظاماً تكون فيه الغلبة للمعرفة الواعية، لا للحكم العبدى . . .»^(١).



هكذا فكر، وكتب قاسم أمين . . . وهكذا نلتقي في آثاره الفكرية بما يؤكد أنه كان ناقدًا للمجتمع الإقطاعي، مهاجمًا لقيمه . . . مبشراً بقيم المجتمع البورجوازي، وداعياً إلى فتح الطريق أمام المجتمع المصري كي يدخل إلى رحابه، بعد أن يخلف وراء ظهره مجتمع الإقطاع وكبار الملاك.

(١) المصدر السابق، ج ١ ص ٣٤٥، ٣٤٦.

التطور الفكري

إن ديننا قد أوصى بأن يكون للرجال مجتمعهم الذي لا تدخله امرأة واحدة، وأن يجتمع النساء دون أن يقبل بيتهن رجل واحد، وذلك حماية لهما من الضعف وقضاء على مصدر الشر

* ليس في الشريعة نص يوجب الحجاب وإنما هي عادة أخذناها عن بعض الأمم.. وأن تساء العرب والقرى المصرية، مع اختلاطهن بالرجال على ما يشبه الاختلاط في أوروبا، أقل ميلاً للفساد من ساكنات المدن المحجبات.. إن المرأة التي تخالط الرجال تكون أبعد عن الأفكار السيئة من المرأة المحجوبة!

* إنني لا أفهم أن يقسم الإنسان دعوى لنحصل الطلاق، فتلقى الأرواح لا يمكن أن يكون مادة للتقاضى!

* إن وضع الطلاق تحت سلطة القاضى أدعى إلى تضيق دائرته، وأدنى إلى المحافظة على نظام الزواج...!

قاسم أمين

عندما أصدر قاسم أمين كتاب «تحرير المرأة» سنة ١٨٩٩ م ، أحدث ضجة كبرى في المجتمع المصري والمجتمعات الشرقية ، بل لعله قد أحدث أكبر وأهم معركة فكرية قامت في الشرق من حول كتاب في القرن الذي ظهر فيه .

ولقد صدرت للرد عليه مجموعة كبيرة من الكتب ، فضلاً عن الفصول والدراسات والمقالات ، بل لقد صدرت صحف متخصصة تفرغت ، تقريباً ، للجدل في موضوع الكتاب ، إن بالتأييد أو المعارضة والتفنيد .

ولقد كانت القضايا الرئيسية التي أثارت الجدل أكثر من غيرها - من بين قضايا «تحرير المرأة» - هي :

١ - ما أثاره الكتاب عن الحجاب الذي كان يسود عالم المرأة في ذلك الحين .

٢ - ما دعا إليه من ضرورة تقييد الحق المطلق الممنوح للرجل في إنهاء رابطة الزوجية بالطلاق .

٣ - نقده لنظام تعدد الزوجات ، والدعوة إلى ضبطه وتقييده .

وكان وراء الاهتمام بهذه القضايا ، أكثر من غيرها ، تمثيلها لأهم عيوب النظام الأسري السائد ، ولأبرز مشاكل المرأة

الشرفية، ولاخطر القبول التي تحدد من إمكانيات تطورها وتحررها وكذلك - وهو هام جدا - العلاقة الوثيقة بين هذه القضايا، والبحث فيها، وبين الشريعة الإسلامية . . . ذلك أن الجدل حول أية قضية ذات علاقة بالمدين أو الشريعة الإسلامية إنما ينقل، وعلى الفور، هذا الجدل من النطاق الضيق والخاص إلى الساحات العامة التي تتواجد فيها وتشارك أوسع الجماهير، بصرف النظر عن القدرة على استكناه حقائق الأمور والصالح للإدلاء بما هو صواب من الآراء!

ونحن نعتقد أن خصوم قاسم أمين وكتابه «تحرير المرأة» لو فكروا، أو فكر واحد منهم، في ترجمة كتابه «المصريون» عن الفرنسية إلى العربية - وهو الذي صدر قبل «تحرير المرأة» بخمس سنوات - لكان الذي يرد على قاسم أمين في «تحرير المرأة» هو قاسم أمين في «المصريون»! وبالذات فيما يتعلق بالنقضايا الأساسية الثلاث التي أثارت الجدل والعراك .

ذلك أن قاسم أمين قد قدم في «تحرير المرأة» الآراء التي كان ينقضيها ويفندها في «المصريون»، ومن ثم فإننا عندما نقرأ كتابه «المصريون» يخيّل إلينا أن الذين يتحدثون ويبرهنون ويجادلون هم خصوم قاسم أمين، وبالذات فيما يتعلق بالحجاب، والطلاق، وتعدد الزوجات!!

وهذا هو الأمر الذي دعانا لأن نعقد هذا الفصل عن التطور الفكري لقاسم أمين . . . والذي يدعونا للتساؤل: كيف لم يلتفت

إلى هذه الحقيقة، لا حصومه فقط سنة ١٨٩٩ م. بل ولا أحد من
دارسيه بعد ذلك التاريخ ١٢

صحيح أن البعض قد أشار إلى أن قاسم قد (فصل) في «تحرير
المرأة» بعض ما أجمله في «المصريون»^(١)، كما أشار آخرون إلى
أن حماسه لبعض الآراء في «المصريون» قد استبدل بالروح الهادئة
والمنطق الموضوعي في «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة». . . ولكننا
نعتقد أن هذا التشخيص غير كاف، بل وغير دقيق، حتى لقد خيل
إلينا أن دارسيه الذين لم يقفوا عند هذا التطور الفكري الجذري
الذي حدث لقاسم أمين، إما أنهم لم يقرأوا «المصريون»، أو أنهم
قرأوا قراءة العابر المتعجل الذي لا تستوقفه أبرز المعالم في هذا
الكتاب ١٣

ولتوضيح هذه الحقيقة الهامة. . . ننظر في فكر قاسم أمين في
كتابه هذين «المصريون» و«تحرير المرأة»، خاصة ما تعلق منه بهذه
القضايا الثلاث :

الحجاب والمجتمع الانفصالي

يدافع قاسم أمين في كتابه «المصريون» سنة ١٨٩٤ م عن نظام
الحجاب السائد لعالم المرأة الشرقية على عصره، ويمتدح النظام
الصارم الذي جعل المجتمع الشرقي مجتمعاً انفصالياً، يحرم فيه
اختلاط الرجال بالنساء، ويهاجم تحرر المرأة الأوروبية، ويغالي

(١) «الهلال» تأييد قاسم أمين : انظر مقدمة الناشر لكتاب «الأسباب ونتائج».

في تصوير مساوي الاختلاط في أوروبا، ويدمج الرجل والمرأة الأوروبية، غالباً، بالتحلل والافتقار إلى العفة وصيانة الأعراض. . يقدم في القضية كل ما قدمه خصومه فيها عندما أصدر «تحرير المرأة» في سنة ١٨٩٩م!

فهو لا يرى في المجتمع الشرقي، وما يتميز به من فصل بين الرجال والنساء، أية قيود تحرم المرأة من حق أو تمنع عنها أي شيء نافع لها أو للمجتمع. . بل يرى أن المساواة متحققة تماماً بين الرجال والنساء، ذلك «أن كل ما نستطيع أن نفعله نحن الرجال تستطيع النساء فعله، بل ويفعلنه، وكل ما هو مباح لنا مباح لهن، وكذلك فإن كل محرم علينا محرم عليهن أيضاً، ولما كان محرم علينا، نحن الرجال، أن ندخل في مجتمع النساء فيندولي، من الطبيعي، أن يقع نفس التحريم على نساتنا. وإنني أكرر، من وجهة النظر هذه، أن وضع الرجال هنا مشابه لوضع المرأة تماماً»^(١).

ثم يقرر أن هذا المجتمع الانفصالي، الذي كان سائداً يومئذ، هو التطبيق الأمثل لوصايا وتعاليم الدين، «لأن ديننا. . قد أوصى بأن يكون للرجال مجتمعهم الذي لا تدخله امرأة واحدة، وأن يجتمع النساء دون أن يقبل بينهن رجل واحد. لقد أراد بذلك حماية الرجل والمرأة مما ينطوي عليه صدرهما من ضعف، والقضاء الجذري على مصدر الشر!»^(٢).

(١) المصدر السابق، ج ١ ص ٢٧٩.

(٢) المصدر السابق، ج ١ ص ٢٩٣.

نعم . . هذا هو كلام قاسم أمين! هو كلامه في «المصريون» سنة ١٨٩٤ م . . وهو أيضاً مضمون كلام خصومه عند صدور «تحرير المرأة» سنة ١٨٩٩ م!

ثم يهاجم عادات الأوروبيين فيما يتعلق بالاختلاط، متهماً إياهم بالتحلل الخلقي، مصوراً أن نتائج الاختلاط غالباً ما تنتهي بفقدان المرأة عففتها وتغريط الرجل في عرضه، يقول: «أننى أعرف أنه يجب تكوين رأى سليم فى الجنس اللطيف، وأن النساء اللاتى يعرفن إبداء جمالهن يعرفن كذلك الدفاع عن أنفسهن، غير أننا لا نصادف كل يوم قلاعاً حصينة، فبعد المعارك الكبرى تدق ساعة الاستسلام، المسألة مسألة صبر، و«استراتيجية وتكتيك»! ثم إنه حيث يفشل محارب ينتصر آخر أكثر مهارة منه، والمهم هو البحث عن الظروف الملائمة للنجاح، والانطلاق فى الهجوم الخامس، فى اللحظة المناسبة. لا قبلها ولا بعدها!»^(١).

وهو لا يعرض هذه الصورة التى تجعل من الاختلاط وتحرر المرأة الأوروبية عملاً مكرساً. أساساً، لشيوع التحلل والاستمتاع الحرام . . . لا يعرضها بوصفها انحرافاً أصاب المجتمع الأوروبى، ويخرج به عن فكره المتمسك بالعفة والشرف، بل يرى فى هذه الصورة التطبيق لفكر الأوروبيين فى هذا الموضوع . . . فيقول:

«يلدو من أفكار الأوروبيين أن استمتاع المرأة بالسعادة وحده هو

(١) المصدر السابق، ج ١ ص ٢٩٣، ٢٩٤

زعم مرفوض ، بل إن الرجل المتزوج من امرأة جميلة يرتكب حماقة إذا رغب في الاستئثار بها ، إن عليه أن يتيح لها أن تعاونه ، وتدلى بذلونها في إرضاء أصدقائه ، وهو يفهم أن يمزح أصدقاءه معها وأن يحاولوا الظفر بقلبيها ، ويوجهوا إليها عبارات الغزل المتصلة ، دون أن يقلق الزوج أو يسيء النظر إليهم ، فهم في الواقع فتيان شجعان ، وبعضهم أصدقاء منذ الطفولة ، ولا شيء مما يفعلونه يعد جاداً أو خطراً ، والأمر ، كما يرى ، مجرد دعاية ، ولا شيء غير ذلك ! كما يمنح الزوج في نفس الوقت اهتماماً لزوجات الآخرين ، ويخاطبهن بنفس اللغة ، ويقول لهن نفس المجاملات ، ويوجه إليهن نفس عبارات الغزل ، تلك هي متعة اللقاءات المشتركة !^(١)

ثم يفارن بين موقفنا نحن الشرقيين ، من هذه القضية وعاداتنا وتقاليدها ، وبين موقف الأوروبيين وعاداتهم وتقاليدهم عندما يقول :

«إنه على نقيض العادات الأوروبية ، التي يبدو أنها خلقت لنشر المتعة على الأرض . . تبدو عاداتنا نحن مستلهمة من الفضيلة . . إن في العالم الإسلامي مفكرين متحررين وملاحدة ومتشككين وماديين ، وهناك الذين تبنوا العادات الأوروبية في كل تفاصيل حياتهم ، غير أنه لا يوجد ولن يوجد مسلمون يقبلون الزواج في ظل العادات الأوروبية ، ويجب لقبولهم هذه العادات

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٩٢ .

أن ينتظروا حتى تسود العالم كله النظرية الفوضوية عن العلاقات الزوجية المتحررة من جميع القيود.

إن عليهم أن يعترفوا كذلك بأننا حين نتزوج نحمل إلى نساءنا روحاً ما زالت نقية، وقلباً ما زال مكتمل الحنان، وحواس أكثر نداوة مما يفعلون هم ساعة زواجهم، فالزواج عندنا بداية، في حين أنه عندهم، تقريباً، دائماً نهاية! ^(١).

هكذا كتب قاسم أمين في كتابه «المصريون» سنة ١٨٩٤ م:

١ - فحيد الحجاب للمرأة الشرقية، ودافع عن المجتمع الشرقي الانفصالي . . ورأى في ذلك التطبيق الأمين لتعاليم الإسلام، والتحقيق للمساواة الحقة بين الرجال والنساء.

٢ - ووجه سهام نقده وهجومه إلى الاختلاط في أوروبا، وعسم على مجتمعاتها تلك الصورة التي ربما كانت خاصة بشريحة هامشية في تلك المجتمعات.

٣ - وخلص إلى أن الشرق والمرأة الشرقية ليست لديها قضية ولا مشكلة تستحق البحث والدعوة إلى التغيير . . وأن المشكلة هناك لدى أوروبا التي أبحاث الاختلاط ففقدت النعيم الذي ينعم به الشرقيون؟!

والآن، ماذا كتب قاسم أمين عن هذه القضية في «تحرير المرأة»

سنة ١٨٩٩ م

(١) المصدر السابق، ج ١ ص ٢٩٤، ٢٩٥.

في «تحرير المرأة» ينقض قاسم أمين ما قرره من قبل من أن الحجاب ميزة للمجتمعات الشرقية، يرتبط فيها بتعاليم الإسلام... ويراه «عادة» مرت بمجتمعات عديدة، ومنها مجتمعات أوروبية، ويقرر أن تطور هذه «العادة» إلى واندثارها أمر ممكن وخاضع لما تخضع له غيرها من «العادات». يقول: «وذلك لأن الحجاب دور من الأدوار التاريخية لحياة المرأة في العائم» قال «لاروس» تحت كلمة «خمار»: «كانت نساء اليونان يستعملن الخمار إذا خرجن ويخفين وجوههن بطرف منه، كما هو الآن عند الأم الشرقية». وقال: «ترك الدين المسيحي للنساء خمارهن وحافظ عليه عندما دخل في البلاد، فكان يغطين رءوسهن إذا خرجن في الطريق وفي وقت الصلاة، وكانت النساء تستعملن الخمار في القرون الوسطى، خصوصاً في القرن التاسع، فكان الخمار يحيط بأكتاف المرأة ويجر على الأرض تقريباً، واستمر كذلك إلى القرن الثالث عشر، حيث صارت النساء تخفف منه إلى أن صار، كما هو الآن، نسيجاً خفيفاً يستعمل لحماية الوجه من التراب والبرد ولكن بقي بعد ذلك بزمان في إسبانيا وفي بلاد أمريكا التي كانت تابعة لها»^(١).

ثم سار، في «تحرير المرأة»، مواصلاً موقفه الفكري الجديد، فنفي أن يكون هذا الحجاب تنفيذاً لتعاليم الإسلام، فهو «عادة» لا «شرع». فقال: «... إن الأوامر الإلهية يجب الإذعان لها دون بحث ولا مناقشة، ولكننا لا نجد نصاً في الشريعة يوجب

(١) المصدر السابق، ج ٢ ص ٤٤

الحجاب ، على هذه الطريقة المعهودة ، وإنما هي عادة عرضت عليهم من مخالطة بعض الأمم ، فاستحسنوها وأخذوا بها وبالغوا فيها وألبسوها لباس الدين ، والدين براء منها»^(١) .

ثم رأينا يطلب موقفًا وسطًا ، لا هو تبرج الغرب ومغالاته في عرض مفاتيح المرأة ، ولا هو الحجاب الشرقي ومنع اختلاط الرجال بالنساء ، فيقول : «إن الغربيين قد غلوا في إباحة التكشف للنساء إلى درجة يصعب معها أن تتصون المرأة من التعرض لمثارات الشهوة ، ولا ترصاه عاطفة الحياء ، وقد تغالينا نحن في طلب التحجب والتحرج من ظهور النساء لأعين الرجل . . وبين هذين الطرفين وسط ، هو الحجاب الشرعي ، وهو الذي أدعوا إليه»^(٢) .

ومعروف أن الحجاب الشرعي لا علاقة له بمنع الاختلاط ، إذ هو يعنى ستر جسم المرأة ومفاتيحها ، عدا الوجه والكفين . . وبعد أن كان قاسم أمين يدافع - في «المصريون» - عن المجتمع الانفصالي ، ويراه التنفيذ لتعاليم الدين الإسلامي ، أخذ يهاجم هذا المجتمع الانفصالي ، ويستنكر إمكانية ممارسة المرأة لواجباتها ومهماتها في الحياة ، طالما ساد الانفصال بين الجنسين في المجتمع ، إذ «كيف يمكن لامرأة محجوبة أن تتخذ صناعة أو تجارة لتعيش منها إن كانت فقيرة؟ إن الضرورة أحالت الشبات على هذا الضرب من الحجاب عند أغلب الطبقات من المسلمين ، كما

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤٥

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤٣ .

نشاهده في الخدمات والعاملات وسكان القرى ، حتى من أهل الطبقة المتوسطة ، بل وبعض أهل العلية من أهل البادية والقرى ، والكل مسلمون ، بل قد يكون الذين أمكن فيهم منه في أهل المدن! (١)

وبعد أن كان الاختلاط عنده شراكا ، يستخدمها الرجل للإيقاع بالمرأة في حبائل الحب والعشق والمتعة . أخذ ينفي هذا الفهم السطحي ، ويرى قطاعات المجتمع التي يلعب الاختلاط والتحرر في حياتها دوراً إنتاجياً ونضالياً في سبيل العيش ، ويدرك رقى أخلاق هذه القطاعات حتى عن الشرائع التي تستر بمبادئها خلف الحجاب ! فكتب مقررًا « أن نساء العرب ونساء القرى المصرية . مع اختلاطهن بالرجال على ما يشبه الاختلاط في أوروبا تقريباً ، أقل ميلاً للفساد من ساكنات المدن اللاتي لا يمنعهن الحجاب من مطاوعة الشهوات والانغماس في الفاسد . وهذا مما يحمل على الاعتقاد بأن المرأة التي تخالط الرجال تكون أبعد عن الأفكار السيئة من المرأة المحجوبة ! » (٢)

هكذا جسم القضية هذا الجسم الجديد!

وبعد الصورة التي قدمها - في « المصريون » - لنمراة الأوروبية والغربية ، صورة العاشقة الغانية ، والفريسة التي لا تثبت أن تستسلم ، سريعاً أو بعد زمن ، لإغراء الرجل الساعى لاقتناصها ، عاد فاسم أمين عن رأيه هذا في نساء الإفرنج ، فرأى أنهن « يحافظن

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤٨ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٥٩ .

على ظواهرهن ، على العسوم" . (١) وأشي على تمتع المرأة الأمريكية بحريتها ، وتحدث بإعجاب عن الاختلاط هناك افساء أمريكا هن أكثر نساء الأرض تمتعا بالحرية ، وأكثرهن اختلاطاً بالرجال . حتى أن البنات في صباهن يتعلمن مع الصبيان في مدرسة واحدة ، فتتعهد البنت بجانب الصبي لتلقى العلوم! (٢)

ومع هذا الاختلاط في الغرب ، نهضت المرأة ، ونهضت الأمة " فكل مطلع على حركات النساء الغربيات وأعمالهن لا يشك في أنهن بأتين من الأعمال العظيمة ما لا قوام للمدنية بدونه! (٣)

تلك هي قضية الحجاب . . وموقف قاسم أمين منها . . موقفه القديم كما صورته في كتابه "المصريون" سنة ١٨٩٤ م ، وموقفه الجديد ، والمناقض جذرياً لموقفه القديم ، والذي عرضه في كتابه "تحرير المرأة" سنة ١٨٩٩ م .



تقييد الطلاق

والقضية الثانية التي نقدمها مثلاً حياً وواضحاً للتطور الفكري الذي مر به قاسم أمين ، هي قضية الموقف من "الطلاق" . . وهل هو حق مطلق للرجل . . أم أن الأمر يستدعي تقييد هذا الحق ووضع الضوابط على هذا الإطلاق؟

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٣٩

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٥٩

(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٨٠

ذلك أن قاسم أمين، في كتابه "المصريون"، يدافع عن بقاء الحرية الكاملة، وغير المقيدة، للرجل ليقع الطلاق ويفصم عرى العلاقة الزوجية عندما يقرر ذلك ويراد السبيل لما يتصوره صواباً. . وهو هنا يستنكر الآراء الإصلاحية التي يرى أصحابها ضرورة جعل الطلاق بحكم من القاضى بعد بذله الجهد - بواسطة التحكيم - لإصلاح ذات البين. . وهو يصور موقفه هذا عندما يقول:

« . . غالباً ما يكون الطلاق علاجاً أسوأ من الداء غير أن نه، كجميع الأدوية، موهبة الشفاء فى بعض الأحيان، إنه عملية يتر يدعن لها المصاب كارهاً دائماً، مطلقاً صرخات الألم، ولكنها مع ذلك تنقذه من الموت .

وقد رأى المشرع الإسلامى من الضرورى ترك هذه المسألة الخطيرة فى يد الزوجين، يتصرفان فيها بحريتهما، فالمسألة تتعلق بحياتهما وبسعادتهما وبمستقبلهما، وذلك أهم ما يمكن أن يكون ركيزة لفكرهما، وهما يتوليان بنفسيهما مهمة إصدار الحكم على مصيرهما الذاتى .

إننى لا أفهم أن يقيم الإنسان دعوى ليحصل على الطلاق، فتلقى الأرواح لا يمكن أن يكون مادة للتقاضى، كالشارع على برمبل نبذ أو جدار مشترك. أية محكمة تلك التى تزعم قدرتها على توجيه قلبى وشد وثاقه، وهو المتقلب كثير النزوات؟! وماذا يعرف هؤلاء القضاة؟! إن موضوع هذه القضية هو شخصيتى

الصعبة المعقدة التي تحتاج عدة سنوات من عبقري مثل (زولا) لكي يفهمها ويحللها ويحكم عليها!«^(١).

ولكن قاسم أمين يعود عن موقفه هذا، ويتبنى الرأي المعاكس لرأيه الذي أسلفناه، وأن يكون بالتدريج، فيبدأ بالشكوى من مضار الإسراف القائم والجاصل في استخدام الرجال لحقهم المطلق في الطلاق. . . فهو قد أصبح «أهم الأسباب الهادمة لاحترام العائلة». . . ومع ذلك «اعتاد أهل بلادنا استعماله بطريقة شائنة جداً. لا يمكن أن يرضاها الشرع أو يسلم بها العقل. . .»^(٢).

ثم نعد ذلك بحسب الموقف، فيدعو إلى تقييد الإطلاق الذي يتمتع به الرجل في إيقاع الطلاق، وينقض، في «تحرير المرأة»، منطقته في «المصريون»، فتبدل المواقف، ويرفع خصومه في سنة ١٨٩٩م نفس حججه هو في سنة ١٨٩٤! نعم. . . يطلب قاسم أمين، في «تحرير المرأة»، أن توضع القيود على الطلاق. . . وذلك من مثل:

١ - قيد الإرادة الواضحة والنية الحقيقية على قسم عرى الزوجية. . .

٢ - قيد الإشهاد على وقوع الطلاق.

٣ - قيد التحكيم الذي حدده القرآن بهدف محاولة الإصلاح.

٤ - قيد جعل إيقاع الطلاق من اختصاص القضاء.

(١) المصدر السابق، ج ١ ص ٢٨٩، ٢٩٠.

(٢) المصدر السابق، ج ١ ص ٢٢٥.

وفي هذا الأمر يكتب ليقول :

« . . . يجب أن يفهم أن الطلاق إنما هو عمل يقصد به رفع قيد الزواج ، وهذا يفرض حتماً وجود نية حقيقية عند الزوج وإرادة واضحة في أنه إنما يريد الانفصال من زوجته . . . وإن لم يرد الإصلاح أن يبحث في كتب الشرع كلها ويقف على آراء الفقهاء مهما كانت ، خصوصاً إذا كان قصده محو فساد عظيم صار ضرره عاماً . . فلم لا يجوز ، مع ظهور الفساد في الأخلاق والضعف في العقول وعدم المبالاة بالمقاصد ، أن يؤخذ بقول بعض الأئمة من أن الإشهاد شرط في صحة الطلاق ، كما هو شرط في صحة الزواج ، كما ذكره «الطبرسي» ، وكما تشير إليه الآية الواردة في سورة الطلاق ، حيث جاء في آخرها « وأشهدوا ذوي عدل منكم » (الطلاق : ٢) ؟ أليس هذا أمراً صريحاً بالإشهاد ، يشمل كل ما أتى قبله من طلاق ورجعة وإمساك وفراق ؟ أليس قصد الشارع أن يكون للطلاق واقعة حال مشهور لدى العموم ليسهل إثباته ؟ لم لا تقرر أن وجود الشهود وقت الطلاق ركن بدونه لا يكون الطلاق صحيحاً ؟ نظن أن في الأخذ بهذا الحكم موافقة لآية من كتاب الله ، ورعاية لمصلحة الناس ، وما يدرينا أن الله سبحانه وتعالى قد اطلع على ما تصل إليه الأمة في زمان كزماننا هذا ، فأنزل تلك الآية الكريمة لتكون نظاماً لنا نرجع إليه عند منيس الحاجة ، كما هو شأننا اليوم » .

ثم يستطرد فاسم أمين ليصوغ مشروعاً بقانون يقترحه على الحكومة لتقييد الطلاق ، فيقول :

« . . . بل إن أرادت الحكومة أن تفعل خيراً للأمة فعليها أن
تضع نظاماً للطلاق على الوجه الآتى :

المادة الأولى : كل زوج يريد أن يطلق زوجته فعليها أن يحضر
أمام القاضى الشرعى أو المأذون الذى يقيم فى دائرة اختصاصه ،
ويخبره بالشقاق الذى بينه وبين زوجته .

المادة الثانية : يجب على القاضى أو المأذون أن يرشد الزوج إلى
ما ورد فى الكتاب والسنة مما يدل على أن الطلاق محقوت عند
الله ، وينصحه ، ويبين له تبعه الأمر الذى سيقدم عليه ، ويأمره أن
يتروى مدة أسبوع .

المادة الثالثة : إذا أصر الزوج ، بعد مضى الأسبوع على نية
الطلاق ، فعلى القاضى أو المأذون أن يبعث حكماً من أهل الزوج
وحكماً من أهل الزوجة ، أو عدلين من الأجانب إن لم يكن لهما
أقارب ليصلحا بينهما .

المادة الرابعة : إذا لم ينجح الحكمان فى الإصلاح بين الزوجين
فعليهما أن يقدمتا تقريراً للقاضى أو المأذون ، وعند ذلك يأذن
القاضى أو المأذون للزوج فى الطلاق .

المادة الخامسة : لا يصح الطلاق إلا إذا وقع أمام القاضى أو
المأذون ، وبحضور شاهدين ، ولا يقبل إثباته إلا بوثيقة رسمية .
وليس فى هذا تعد على حق من حقوق الزوج ، وإثما هو وسيلة
للتروى والتبصر اتخذت لمصلحة المرأة وأولادها ، بل ولمصلحة

الزواج نفسه! إن وضع الطلاق تحت سلطة القاضى أدعى إلى
تضييق دائرته وأدنى إلى المحافظة على نظام الزواج»^(١).

هكذا استدار فكر قاسم أمين دورة كاملة، فنبى سنة ١٨٩٩
فكر خصومه فى سنة ١٨٩٤ م. كما نبى خصومه فى سنة ١٨٩٩ م
فكره هو فى سنة ١٨٩٤!

تعدد الزوجات

والقضية الثالثة التى نقدمها ضمن الأمثلة والأدلة على تطور
فكر قاسم أمين هى موقفه من "تعدد الزوجات". فعلى الرغم
من أن كلامه من كتابيه "المصريون" و"تحرير المرأة" يشترط قيام
الضرورة لجواز التعدد والتزوج بأكثر من زوجة واحدة، إلا أنه فى
"تحرير المرأة" كان أكثر ميلاً لتغليب منع التعدد على إباحته
وتجويزه، كما كان كذلك أكثر تشبيهاً على مضاره ومخاطره... بل
لقد تحدث فى "المصريون" عن أمور نفى أن تكون مخاطرة
اجتماعية سببها التعدد، ثم عاد فى "تحرير المرأة" فراها خطراً
يجب لأجلها منع هذا النظام.

فهو فى "المصريون" يتحدث عن موقف الشرع الإسلامى من
التعدد فيذهب إلى أن الشرع الإسلامى يتحدث البناء عن التعدد.
قائلاً: "من الناحية المبدئية تزوجوا بامرأة واحدة، إنى أوصيكم
بذلك من أجل راحتكم، فإذا حدث حادث حطم، لسبب من

(١) المصدر السابق - ج ٢ ص ١٠١ - ١٠٤

الأسباب، حياتكم الزوجية، فستطيعون أخذ زوجة ثانية، ويمكن لكم إن ساء حظكم اتخاذ زوجة ثالثة أو رابعة. ولكن، فليكن معلوماً لكم أنني لا أبيع لكم ذلك إلا إذا كنتم مضطرين إليه وخاضعين لضرورات محددة. . . . وإنني أفرض عليكم . . . أن تعاملوا هؤلاء النساء جميعاً، في كل الأمور، بعدالة كاملة ومساواة دقيقة، وأن تكون هذه النسوة جميعاً زوجاتكم على نفس المستوى، وأن تقوموا بكل نفقاتهن، وأن يكون الأطفال الذين يضعنهم أولادكم، فتسهرن على تعليمهم جميعاً بنفس الاهتمام واليقظة. . . فإذا أحسستم القدرة على أداء هذه الواجبات العديدة والمتنوعة، وإذا وجدتم أنفسكم في حالة ضرورة تختم الخضوع لها فتزوجوا بأكثر من واحدة، وإلا فلا تأخذوا إلا زوجة واحدة، وهذا أفضل. . . ."

كما يعرض قاسم أمين، في هذا الكتاب، لرأي الذين ينادون بمنع التعدد أو تقييده تقييداً شديداً، لأنه قد أصبح مصدراً لشيوع العداوة والبغضاء بين الإخوة المولودين من أمهات عدة، فيرفض هذه الحجة، ويقول "يتخيل الناس، بصفة عامة، أن الأطفال الذين يولدون من أمهات مختلفة يحدث لهم، بالضرورة، أن يتبادلوا الكراهية، وأن يتعاركوا صباحاً ومساءً، ومع ذلك فإن هذا لا يحدث، والمسألة مسألة تعود!" (١).

وبعد ذلك نرى فكره يتطور عندما يعرض القضية في "تحرير

(١) المصدر السابق، ج ١ ص ٨٦-٨٧.

المرأة» تطورا ملحوظا . . فهو يقول : « . . لا يعذر رجل يتزوج أكثر من امرأة ، اللهم إلا في حالة الضرورة المطلقة . . وغاية ما يستفاد من آية التحليل : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا » (النساء : ٣) . . إنما هو حل تعدد الزوجات إذا أمن الجور . وهذا الحلال . كسائر أنواع الحلال ، تعثريه الأحكام الشرعية الأخرى ، من المنع والكرهية وغيرها ، بحسب ما يترتب عليه من المفساد والمضالحة ، فإذا غلب على الناس الجور بين الزوجات ، كما هو مشاهد في أزماننا ، أو نشأ عن تعدد الزوجات فساد في العائلات ، وتعد للحدود الشرعية الواجب التزامها ، وقيام العداوة بين أعضاء العائلة الواحدة ، وشيوع ذلك إلى حد يكاد يكون عاما ، جاز لناكم ، رعاية للمصلحة العامة ، أن يمنع تعدد الزوجات ، بشرط أو بغير شرط ، على حسب ما يراه موافقا لمصلحة الأمة . . » (١) .

فهو هنا يتحدث عن قيام فساد في العائلات وعداوة بين أعضائها بسبب التعدد ، وهو ما كان ينكره من قبل . . وهو هنا يتحدث عن جواز إصدار تشريع يمنع التعدد مطلقا ، إذا غلبت المفساد الناشئة عنه في المجتمع ، ولا يترك القضية برمتها للموقف الفردي والتصرف الفردي كما كان عليه موقفه في كتاب «المصريون» .

وهو تطور ملحوظ في فكره حيال هذا الموضوع .

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٩٢ ، ٩٣ .

هكذا أصاب التطور فكر قاسم أمين ما بين سنة ١٨٩٤ م ،
عندما أصدر رده على دوق داركور وما بين سنة ١٨٩٩ م ، عندما
أصدر «تحرير المرأة» . . . وهو التطور الذي سبقنا عليه الأدلة ،
وقدمنا النماذج والأمثلة التي تبرهن عليه فيما تقدم من صفحات .

لكن ، يبقى سؤال هام لا بد من الإجابة عنه . . . وهو :

لماذا كان هذا التطور الفكري ، عند قاسم أمين أساساً وبالدرجة
الأولى ، في تحديد رأى الشرع الإسلامى من القضايا التي كانت
مثارة يومئذ بين الباحثين في قضايا الأسرة والمرأة وشعوتها ؟
وبالتحديد في قضايا : الحجاب ، والطلاق ، وتعدد الزوجات ؟

إننا لا نلاحظ تطوراً فكرياً بارزاً في آرائه الأخرى ، مثل آرائه
في : الأدب ، واللغة ، والسياسة ، والاجتماع ، والاقتصاد ،
والمنهج ، والحضارة . . . إلخ . والذي لاحظناه هو أن التطور
الملحوظ كاد أن يقتصر على الآراء التي حوّاها كل من «المصريون»
و«تحرير المرأة» باعتبارها رأى الشرع الإسلامى في مشاكل الأسرة
وعلاجها .

وأهمية هذا السؤال ، ومن ثم أهمية الإجابة عنه ، تكمن في
ذلك الرأى والموقف الذي أبديناه من قبل ، عندما كتبنا الدراسة
التي قدمنا بها (للأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) فقلنا يومها :
إننا مع القائلين بأن للإمام محمد عبده مشاركة في تأليف كتاب
«تحرير المرأة» ، ولقد قدمنا أدلتنا التي تثبت أن الفصول التي
عرضت لرأى الشرع في قضايا الحجاب والزواج والطلاق وتعدد

الزوجات ، بهذا الكتاب ، هي للأستاذ الإمام ، وليست لقاسم أمين .

لقد رأينا ذلك ، وكتبنا عنه صفحات أثبتناها كذلك في التقديم للأعمال الكاملة لقاسم أمين . . ونحن نود أن نضيف هنا :

أن هذه الدراسة التي قدمناها ، في هذا الفصل ، عن التطور الفكري لقاسم أمين ، هي دليل جديد يدعم ذلك الرأي الذي سبق لنا أن قررناه .

ذلك أن الحجة التي قدمناها ، ودللنا عليها يومئذ ، هو أن الفكر الإسلامي المتخصص الذي قدم في هذه الفصول هو من صنع إمام عجتهد في الإسلام ، ولم يكن في ذلك العصر أقدر من الشيخ محمد عبده على الإدلاء بهذه الاجتهادات وإصدار هذه الأحكام ، وأن هذا الميدان ليس ميدان قاسم أمين .

كما أن جوهر حجة خصوم هذا الرأي كان أن قاسم أمين ليس غريباً عن الشريعة الإسلامية ومباحثها ، فلقد درسها كرجل قانون ضليع .

ولكن . . بعد دراستنا هذه عن تطوره الفكري . . لنا أن نسأل : هل درس قاسم الشريعة بين سنتي ١٨٩٤ م و ١٨٩٩ م . . أم قبل ذلك بكثير ؟ إن المعلوم أنه تخرج في مدرسة الحقوق سنة ١٨٨١ م ، وأنهى دراسته القانونية في فرنسا سنة ١٨٨٥ م . . ومنذ ذلك التاريخ وهو يمارس وظائف القضاء ، في النيابة أو مستشاراً في محكمة الاستئناف . . فإذا ما جاء في سنة ١٨٩٤ م وقدم لنا في

كتاب «المصريون» تلك الآراء التي قال عنها إنها آراء الشرع الإسلامي في الحجاب والطلاق وتعدد الزوجات، كنا مطالبين بأن نقول: إن هذه ثمرة دراسة قاسم أمين للشرع الإسلامي، وفهمه له في تلك المباحث... وإذا ما قدم لنا في «تحرير المرأة» آراء الشرع الإسلامي، في هذه القضايا، على نحو مناقض لما في «المصريون» كان لنا، إن لم يكن علينا، أن نزيد ونزكي قول من قال: إن الفصول التي حواها «تحرير المرأة» عن رأي الشرع في هذه القضايا إنما هي للأسناد الإمام محمد عبده، أسهم بها مع قاسم أمين في تأليف هذا الكتاب.

ومن هنا نستطيع أن نقول: إن هذه الصفحات التي قدمناها عن التطور الفكري لقاسم أمين، هي دليل جديد يضاف إلى الأدلة التي سبق أن قدمناها ونحن نقدم لأعمال محمد عبده على وجهه النظر هذه فيما يتعلق بكتاب «تحرير المرأة»... والفضل في إضافة هذا الدليل الجديد يعود، في الأساس، إلى استنادنا في دراستنا هذه، التي نقدمها، على كتاب «المصريون»، الذي ترجم عن الفرنسية للمرة الأولى، والذي كان الدليل الأول على هذا التطور الفكري القائم في آثار قاسم أمين.

حرية المرأة

[هناك تلازم بين الحالة السياسية والحالة العائلية.. فشكل الحكومة يؤثر في الآداب المنزلية، والآداب المنزلية تؤثر في الهيمنة الاجتماعية.. ففي الشرق نجد المرأة في رق الرجل، والرجل في رق الحكومة.. وحيثما تتمتع النساء بحريتهن الشخصية يتمتع الرجال بحريتهم السياسية، فالخالفان مرتبطتان ارتباطاً كلياً.]

واختصار المرأة المسلمة إلى الاستقلال يكسب ضروريات حياتها هو السبب الذي جرح ضياع حقوقها، فلقد استأثر الرجل بكل حق، ونظر إليها نظرتة إلى حيوان لطيف، يكفيه لوازمه كي يتسلى به!!].

قاسم أمين

إن التعميم في الحكم على الميراث العربي والشرقي فيما يتعلق بحقوق المرأة والنظرة إليها وتقييم دورها في المجتمع وعلاقتها بالرجل ، ذلك الميراث الذي واجهه قاسم أمين ومعاصره ، عندما فكروا في دخول هذا الميدان من ميادين الإصلاح الاجتماعي . . . إن التعميم في الحكم على هذا الميراث هو خطأ كبير .

ذلك أن تراث العرب والشرق قد اشتمل على تيارين رئيسيين تمايزا إلى حد كبير في هذا الموضوع . . . فحيثما كانت هناك حركات فكرية عقلانية أو ثورية أو تقدمية ، وجدنا للمرأة في صفوفها دوراً ملحوظاً ، نسبياً ، وجدنا في فكر هذه الحركات والتيارات حديثاً مشروباً بالكثير من الاحترام للمرأة ودورها في الحياة . . . نجد ذلك عند المعتزلة ، والخوارج ، وبعض فرق الشيعة .

وحيثما كانت السيادة للفكر المتخلف ، والمهام الأولى للحركات الفكرية هي التبرير لمضالم الحكم وإضفاء الشرعية على تصرفات المستبدين بالسلطة والسلطان كان الاحتقار للمرأة ، والنظر إليها كسلعة من سلع المتعة ، ومخلوق جميل وضعيف قد خلقه الله كي تتزين به القصور ويستمتع به الرجال .

ولما كانت الغلبة والسيادة ، أن في هذا الزمن طويلاً أو في الصورة قوة وعلوً ، كانت من نصيب ذلك المفهوم الثاني والتقييم

الأخير، فلقد أصبحت ألوان تراثنا الفكرى مليئة بكل ما يحفر المرأة ويغض من شأنها، ورسخ ذلك فى فكرية المجتمع الشرقى . خصوصاً بعد أن طال ليل العصور «الملوكية - العثمانية» ، حتى لقد غابت من الميراث الفكرى الذى كان الناس يتداولونه أو احرى القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر تلك القسمة الأخرى فى تراثنا، التى تنصف المرأة وتضع اعتباراً لدورها الإيجابى فى الحياة .

ومن هنا نستطيع أن نتخيل : أى ميراث فكرى كان يطالعه جيل قاسم أمين عن المرأة وحظها فى الحرية ونصيبها من المساواة ؟! وهذا التخيل أمر ضرورى . لا لتقييم العمل الفكرى والتطبيقات الذى بذله وأنجزه قاسم أمين ، فى ذلك الميدان ، التقييم الذى يستحقه فحسب . بل ولإدراك : لماذا كانت أحلام قاسم أمين وجيله فى هذا الميدان متواضعة جداً ، عندما ننظر لها الآن فى ضوء ما أنجزته حركة تحرير المرأة فعلاً ، فضلاً عن الآمال التى ما زالت تسعى فى سبيل تحقيقها على هذا الدرب الطويل .

ونحن نستطيع أن نكتف ملامح تلك الفكرية المتخلفة التى ورثها ذلك الجيل . فى هذا الموضوع ، بالإشارة إلى نصين يعبر كل منهما عن فكرة وموقف حددهما المجتمع من المرأة :

أولهما : يعبر عن المقولة القائل «بأن موت المرأة خير من حياتها» ، وأن بطن الأرض أكرم لها وللحياة من ظهرها ! ويعبر عن هذه المقولة أبو بكر الخوارزمى (٩٣٥ - ٩٣٣) عندما يكتب إلى رئيس «بهاء» معزياً فى وفاة ابنته ، فيقول :

«... ولولا ما ذكرته من سترها، ووقفت عليه من غرائب
أمرها، لكنت إلى التهنتة أقرب من التعزية! فإن ستر العورات من
الحسنات، ودفن البنات من المكرمات! ونحن في زمان إذا قدم
أحدنا فيه الحرمة، فقد استكمل النعمة، وإذا زف كريمة إلى القبر،
فقد بلغ أمنيته من الصهر! قال الشاعر:

ولم أر نعمة شملت كرمًا كنعمة عورة سترت بقبر
وقال آخر:

تهوى حبائي وأهوى مونها شئقا
والموت أكرم نزال على الحرم
وقال آخر:

وددت بنيتي ووددت أني وضعت بنيتي في لحد قبرى
قال آخر:

ومن غاية المجد والمكرمات بقاء البنين وسوت البنات
وقال آخر:

سميتها إذ ولدت: تموت والقبر صهر ضامن وبيت^(١)
وثانيهما أي ثانى النصبين: هو المعبر عن سيادة المجتمع
الانقضالى، وصرامة هذا الفضل بين الرجال والنساء، ويعبر
أبو العلاء المعري (٩٧٣ - ١٠٥٧ م) عن هذه المقولة عندما يقول:

(١) «الهلل» تأييد قاسم أمين. انظر مقدمة ناشر «أسباب ونتائج»، ص ٢٠٢.

إذا بلغ الوليد لديك عشرا
 فلا يدخل على الحرم الوليد
 وإن خالفتني وأضمت نصحي
 فأنت، وإن رزقت حجي، بليد
 إلا أن النساء حبال غي
 بهن بضيع الشرف التليد^(١)

تلك كانت موارد الفكر، عن المرأة، التي واجهها قاسم أمين وجيل قاسم أمين . . . ومن ثم فنحن نستطيع أن نبصر عمق قاسم أمين . . . عندما ربط بين تخلف المرأة وعبوديتها وبين سيادة النظم المستبدة، في فترات طويلة، حياة الشرق ومجتمعاته . . . فلا الإسلام ولا طبيعة الأشياء ولا خصائص ضعف المرأة وقصورها، هي التي ميزت بين الرجال وبين النساء وقسمت شئون الحياة بينهم تلك القسمة غير العادلة، وإنما هو الاستبداد الذي جعل من المرأة إحدى فرائسه، فكبّلها بالقيود والأغلال . . . ومن ثم فإن تحررها مرتبط بتحرر الرجل من الاستبداد، أي بتحرر المجتمع ككل . . . وهو يعبر عن هذه الفكرة الهامة عندما يتحدث عن «أن مبدأ تشكيل الحكومة كان على صورة العائلة، والحكومة التي تؤسس على السلطة الاستبدادية لا ينتظر منها أن تعمل على

(١) «الزوم ما لا يلزم»، ج ١ ص ٢٤٧ . تخليق أمين عبد العزيز الخاغي . طبعة القاهرة، سنة ١٩٢٤ .

اكتساب المرأة حقوقها وحريرتها . . فهناك تلازم بين الحالة السياسية والحالة العائلية في كل بلد، ففي كل مكان حظ الرجل من منزلة المرأة وعاملها معاملة الرقيق حظ بنفسه وأفقدها وجدان الحرية، وبالعكس، في البلاد التي تتمتع فيها النساء بحريتهن الشخصية يتمتع الرجال بحريتهن السياسية، فالحالتان مرتبطتان ارتباطاً كلياً.

«وإن للسائل أن يسأل: أي الحالتين أثرت في الأخرى؟ نقول: إنهما متفاعلتان، وإن لكل منهما تأثيراً في مقابلهما، وبعبارة أخرى: إن شكل الحكومة يؤثر في الآداب المنزلية والآداب المنزلية تؤثر في الهيئة الاجتماعية.

انظر إلى البلاد الشرقية، نجد أن المرأة في رق الرجل، والرجل في رق الحاكم، فهو ظالم في بيته مظلوم إذا خرج منه! ثم انظر إلى البلاد الأوروبية، نجد أن حكوماتها مؤسسة على الحرية واحترام الحقوق الشخصية، فارتفع شأن النساء فيها إلى درجة عالية من الاعتبار وحرية الفكر والعمل!»^(١).

وحقيقة أخرى على جانب كبير من الأهمية، والعمق أيضاً، وعماها قاسم أمين. عندما أدرك أن افتقار المرأة إلى «الاستقلال الاقتصادي»، وبُعدها عن ميادين العمل المنتج في المجتمع جعلها تابعة وخاضعة لمن يسد رمقها ويضمن لها مقومات الحياة وضرورياتها. . وإدراك قاسم أمين لهذه الحقيقة هو امتداد للمنهج

(١) الأعمال الكاملة لقاسم أمين، ج ٢ ص ١٢٥، ١٢٦.

الاجتماعي الذي استخدمه في دراسة المجتمع وتفسير التاريخ . .
وهو يعبر عنها عندما يتحدث عن عمل المرأة ودوره في تحريرها ،
إذ «لو تبصر المسلمون لعلموا أن إعفاء المرأة من أول واجب
عليها ، وهو التأهل لكسب ضروريات الحياة بنفسها ، هو السبب
الذي جر ضياع حقوقها ، فإن الرجل لما كان مسئولاً عن كل شيء
استأثر بالحق في التمتع بكل حق ، ولم يبق للمرأة حظ في نظره إلا
كما يكون الحيوان لطيف يوفيه صاحبه ما يكفيه من لوازمه تفضلاً
منه ، على أن يتسلى به !»^(١) .

ذلك هو الميراث الفكري ، المعبر عن الواقع العملي ، أي وجهها
العملة المجسدة لوضع المرأة في المجتمع الشرقي عندما نادى
بتحريرها قاسم أمين .

وذلك هو تقسيمه للأسباب الجوهرية ؛ لذلك الوضع المتخلف
الذي كانت عليه النساء في مجتمعه الذي عاش فيه .



ونحن نستطيع ، دون تفصيل يطيل بنا الحديث ، أن نستدعي
إلى الأذهان صورة امرأة ذلك العصر ، كما رآها قاسم أمين .

فهى ، اجتماعياً ، لا وجود لها لعزلتها عن المجتمع وفروعها
خلف جدران الحريم . . وكما يقول قاسم أمين : فإنه «ليس بين
الأمهات إلا عدد قليل جداً يعرف القراءة والكتابة ، وليس واحدة
لها إلمام ، ولو سطحيًا ، بمقدمات أى علم من العلوم أو فن من

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٣ .

الفنون، وهي فوق ذلك جاهلة بكل أحوال الدنيا، ولا تدري شيئاً من المعاملات والتجارة ولا من نظمات وقوانين البلاد التي تسكنها، فضلاً عن الإلمام بأي شيء من أحوال البلاد الأخرى، وهي مع رفيقاتها من النساء عالم مستقل بذاته لا تجمععه بعالم الرجال فكر أو عمل، وأمة داخل الأمة لها أخلاقها وعوائدها ومعتقداتها. وفي الحقيقة: أنهم آثار عتيقة لأجيال مضت وبقيت أزمته بعيدة.. باقيات على ما كن عليه تلك الأوقات!»^(١).

ولم تكن حال المرأة داخل المنزل بالخير كله، فلم تكن، كما قد يتوهم البعض، ملكة لمملكة المنزل، وإنما كانت مخلوقاً ضعيفاً قد أعيد ويعد للاستمتاع أولاً وقبل كل شيء.. وعن حالتها المعنوية هذه يقول قاسم أمين:

«وأما من الناحية المعنوية، فهي - (أي المرأة) - مخلوق متكاسل، ذات طبيعة تأملية، وبعيدة عن الفاعلية، تكثر الحديث والضحك، تحب دينها، لكنها لا تمارسه! ليس لها مثل أعلى، وتتأقلم مع الحياة الواقعية، وهي زوجة غودجية، وأم حانية، لكنها محدودة المواهب في التدبير المنزلي!».

فهي مخلوق ذليل مواهبه وإمكاناته من طول تعطلها وحرمانها من التدريب على ممارسة ما خلفها له الخالق سبحانه! ولقد بقيت لها من هذه المواهب والإمكانات ما كان متعلقاً منها «بالشكل»، فهي على قدر لا بأس به من الجمال «يتجلى على وجه

(١) المصدر السابق، ج ١ ص ٢٢٧.

الخصوص في نسب أعصائها ، ومثانة الجسد ، وتماشكه ، كم تنتشى
العيون التي تتطلع إلى فلاحه جميلة تمشي مستقيمة ، بارزة
النهدين مثقلة القوام ، مثلثة العينين بالأحلام ، طويلة تقريبا ، في
كفيها وقدميها دقة رائعة ! أما ما تتميز به حقا فهو عيناها الواسعتان
السوداوان الحائيتان ، حتى ليحسبها المرء عيني «ملاك» .
والمعبرتان ، حتى ليفهمهما المرء قبل أن تتحدث هي !^(١)



وعلى عظم الضجة وضخامة الرفض اللذين قبولت بهما
صيحات قاسم أمين ، فإن مطالب الرجل كانت متواضعة ، بل
شديدة التواضع ، إذا ما قيست بما يجب لتحرير المرأة حقا من
إنجازات وإصلاحات ، ولكن هذه المطالب كانت مثل ثورة حقيقية
وتغييرا جذريا في فكر المجتمع وأعرافه بالقياس إلى واقع المرأة
الذي أشرنا إلى الملصح العام من ملاحظته .

* ففي التعليم : لم يطلب قاسم أمين مساواة بين المرأة والرجل
في جميع مراحله . . . بل طلب لها فقط المساواة به في التعليم
الابتدائي ! وعبر عن مطلبه المتواضع هذا عندما قال :

* . . . ونست من يطلب المساواة بين المرأة والرجل في التعليم
فذلك غير ضروري ، وإنما أطلب الآن ، ولا أتردد في الطلب ، أن
توجد هذه المساواة في التعليم الابتدائي على الأقل ، وأن يعتنى
بتعليمهن إلى هذا الحد مثل ما يعتنى بتعليم البنين .*

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٧٨ ، ٢٧٩

وهو لا ينسى في حديثه عن تعليم المرأة أن يميز بين التعليم الجاد الذي يطلبه لها، وهو الذي يصبح في حياتها قوة تغير سلبيتها فتجعلها إيجابية، ويطورها بتطور مجتمعتها، وبين ذلك التعليم الذي ليس له من التعليم سوى المظهر والقشور... ولذلك فهو ينتقد ما كان موجوداً يومها من «تعليم» تلقاه المرأة، كي تظل به «متعة» أكثر جودة... فيقول:

«... أما ما يتعلمه بعض البنات الآن فأراه غير كاف، لأنهن يتعلمن القراءة والكتابة بالعربية وبلغة أجنبية، وشيئا من الحياطة والتطريز، والموسيقى، ولا يتعلمن من العلوم ما يستفدن منه فائدة بلغت إليها، وربما زادت عن تلك المعارف غرورا بأنفسهن، فتظن الواحدة منهن أنها متى عرفت أن تقول: نهارك سعيد، باللغة الفرنسية، فقد فاقت أترابها، وارتفع شأنها، وسما عقلها، ولا تتنازل بعد ذلك لأن تشتغل بعمل من الأعمال المنزلية، فتقضى حياتها في تلاوة أقاصيص وحكايات قلما تفيد إلا في إثارة صور من الخيالات تطوف بها، وتمثل لها عالماً لطيفاً تسرح فيه طرفها وهي شاخصة إلى دخان السيجارة التي تقبض عليها!

أكثر ما تعرفه المرأة، التي يقال الآن إنها متعلمة، هو القراءة والكتابة، وهذه واسطة من وسائل التعليم وليست غاية ينتهي إليها، وما بقي من معارفها فهي قشور تجمعها الحافظة في ريعان العمر، ثم تنفلت منها واحدة بعد واحدة حتى لا يبقى شيء... أين

هذه القشور من الحقائق العلمية التي يتغذى منها العقل وينتقى
على مطاردة الوهم؟! (١).

تلك هي حال تعليم من كن يتعلمن يومئذ من البنات . . .
وهذا هو رأى قاسم فى هذا التعليم . . . ومطلبة فى تعليم النساء .

❖ وفى الحجاب : لم يطلب قاسم سفور المرأة على النحو الذى
كان عليه أمرها فى أوروبا يومئذ ، ولا على النحو الذى
وصل إليه أمرها هذه الأيام . . . وهو كذلك لم يطلب إباحة
خلوة المرأة بالرجل الواحد ، وهو غريب عنها ، ليس بمحرم
لها . . . وإنما طالب فقط بكسر أسوار عزلة المرأة عن المجتمع ،
وتحريرها من الحجاب المعوق لها عن العمل وممارسة وظائفها
العامة والطبيعية الضرورية ، وحيد الوقوف بالحجاب عند ما
هو شرعى منه وفق آراء الفقهاء ، ونادى بالاختلاط الذى
تحتمه ضرورات العمل ومقتضياته فى معترك كسب الرزق
والحياة . . . وعن هذا المطلب المتواضع يقول :

«ربما يتوهم ناظر أننى أرى الآن رفع الحجاب بالمرءة ، لكن
الحقيقة غير ذلك ، فهاتى لا أزال أدافع عن الحجاب ، وأعتبره
أصلاً من أصول الآداب التى يلزم التمسك بها ، غير أننى أطلب
أن يكون منطبقاً على ما جاء فى الشريعة الإسلامية ، وهو على
ما فى تلك الشريعة يخالف ما تعارفه الناس عندنا ، لما عرض
عليهم من حب المغالاة فى الاحتياط ، والمبالغة فيما يظنونه

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٦ ، ٣٧ .

عملاً بالأحكام، حتى تجاوزوا حدود الشريعة وأضروا بمنافع الأمة.

«والذى أراه فى هذا الموضوع هو أن الغربيين قد غلبوا فى إباحة التكشف للنساء إلى درجة يصعب معها أن تتصون المرأة من التعرض لمثارات الشهوة، ولا ترضاه عاطفة الحياء، وقد تغالبنا نحن فى طلب التحجب والتحرج من ظهور النساء لأعين الرجال حتى صيرنا المرأة أداة من الأدوات أو متاعاً من المقتنيات، وحرمانها من كل المزايا العقلية والأدبية التى أعدت لها بمقتضى الفطرة الإنسانية، وبين هذين الطرفين وسط، هو الحجاب الشرعى، وهو الذى أدعو إليه...» (١).

والحجاب الشرعى هو كشف المرأة وجهها وكفها عند كل الفشهائ، وأجزاء أخرى من بعض أطرافها الأخرى، عند نظر منهم، كما تحدث عن ذلك قاسم أمين.

❖ وفى العمل: تدرج موقف قاسم أمين وترقى تبعاً لتطوره الفكرى إزاء تحرير المرأة. . وهو هنا قد مر بمراحل ثلاث:

١ - فى البداية: وهى مرحلة كتابه «المصريون» سنة ١٨٩٤م كان يطلب تعليم المرأة، ويطلب كذلك أن تظل فى البيت، خاصاً بها ومخصصة به، وينتقد اشتغالها، لا «بالوظائف العمومية»، بل «وبالأعمال المدنية» التى يقوم بها الرجال. . . وهو فى التعبير عن هذه الفكرة يقول:

(١) المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٣.

«أننى لا أرى الفائدة التى يمكن أن تجنيها النساء بممارسة حرف الرجال، بينما أرى كل ما سوف يفقدنه، فإن هذه الحرف سوف تجرفهن عن المهام التى يبدو أنهن خلقن من أجلها، كما أن هذه الأعمال لن تجعلهن أكثر فائدة للمجتمع، ولن تزيد من سحرهن، بل على العكس من ذلك. أن مشهد الأم المتفانية يملؤنى حناناً، كما يحرك سرورى منظر الزوجة التى تعنى ببيتها، فى حين أنى لا أشعر بأية عاطفة حين أرى امرأة تهمل على فى خطى الرجال، ممسكة كتاباً فى يدها، وتهز ذراعى فى عنف، وهى تصيح بى: «كيف حالك يا عزيزى؟» بل لعلى أشعر بشيء غير بعيد عن النفور.

هل السيدات المؤلفات والسياسيات - (ولست أتحدث إلا عن اتخذن حرفة الأدب ونجارتها) - هل هن حقيقة نساء؟ وما هى أوجه الشبه بين هذه الكائنات الثلاثى رأين كل شيء، وقرأن كل شيء، وفعلن كل شيء والثلاثى لم تعد وجوههن تحمر، وبين تلك الملائكة الثلاثى ما يكذن يرسلن نظرة أو نقطة أو لمسة كف حتى تبطل عيوننا بالدمع وتقعم قلوبنا بالنشوة؟!

إننى أحتقر ادعاء النساء وتحذلقهن، ولكننى نصبر متحسرين لأخذ المرأة قدراً نسبياً من التعليم، إننى أنعى تربية النساء المصريات وسط الجهل المطلق، يجب أن تعرف المرأة دائماً ما يكفى لكى تنتقن أبناءها مبادئ الأخلاق والفضيلة وتقدم لهم شرحاً علمياً للأشياء التى تحيط بهم، يجب أن تعرف دائماً كيف تجيب، دون أن تخطئ، عن تساؤلات الطفولة التى لا تنقطع»^(١)

(١) المصدر السابق، ج ١ ص ٢٨١، ٢٨٢.

٢ - وفي المرحلة الثانية : مرحلة كتاب «تحرير المرأة» سنة ١٨٩٩ م ،
يبقى قاسم أمين على موقفه الرافض لتولى المرأة «الوظائف
العمومية» ، ولكنه يتطور خطوة فيطلب لها أن تمارس ، مثل
الرجل ، «جميع الأعمال المدنية» . علاوة على شئونها
الخاصة . . ويعبر عن موقفه الجديد هذا بقوله :

«إن الناظر في الأحوال التي فضلت فيها شريعتنا الرجل على
المرأة ، مثل الخلافة والإمامة ، والشهادة في بعض الأحوال ، لا
يجد واحدة منها تتعلق بعيشتها الخصوصية وحريتها ، وأن الشارع
لم يراع في هذه المسائل القليلة إلا عدم الخروج بالمرأة عن وظيفتها
في العائلة ، وحصر الوظائف العمومية في الرجال ، وهو تقسيم
طبيعي جرى على مقتضاه ، إلى الآن ، التمدن في أوروبا - لم
تكن المرأة الأوروبية قد نالت حقوقها السياسية بعد - ولا يوجد
فيه شيء يمنع من ترقية المرأة والوصول بها إلى أعلى مرتبة
تستحقها ، وما من عاقل يدرك الغرض الصحيح من تلك الحقوق
العظيمة التي خولتها الشريعة الإسلامية إلى المرأة في جميع
الأعمال المدنية - ومنها أهليتها لأن تكون وصية على رجل -
يستحسن ما يخالفها من عوائدنا التي تؤدي إلى حرمان المرأة
بالفعل من استعمال هذه الحقوق»^(١) .

وقاسم أمين يرى أهلية المرأة المصرية ، إذا تعلمت ، لإجادة كل
«الأعمال المدنية» التي تحيدها المرأة الغربية . . كما يرى في ذلك

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٨٢ .

عاملاً هاماً ينمى ثروة المجتمع ويدفع بتطوره إلى الأمام، فالمرأة عندنا طاقة معطلة واستثمار غير مستغل، بل لقد أصبحت عبالة على ثمرة عمل الرجل. «فلأن النساء، في كل بلد، يقدرن بنصف سكانه، على الأقل، فبقاؤهن في الجهل حرمان من الانتفاع بأعمال نصف عدد الأمة وفيه من الضرر الجسيم مالا يخفى.

ولا شيء يمنع المرأة المصرية من أن تشتغل، مثل الغربية، بالعلوم والآداب والفنون الجميلة والتجارة والصناعة، إلا جهلها وإهمال تربيتها. ولو أخذ بيدها إلى مجتمع الأحياء، ووجهت عزيمتها إلى مجاراتهم في الأعمال الحيوية، واستعملت مداركها وقواها العقلية والجسمية لصارت نفساً حية فعالة تنتج بقدر ما تستهلك، لا كما هي اليوم عبالة لا تعيش إلا بعمل غيرها، ولكان ذلك خيراً لوطنها، لما ينتج عنه من ازدياد الثروة العامة والثمرات العقلية فيه...» (١).

٣- وفي المرحلة الثالثة: من تطوره الفكري، إزاء هذه القضية، مرحلة «المرأة الجديدة» سنة ١٩٠٠ م. يبقى قاسم أمين على موقفه من قضية اشتغال المرأة «بالأشغال العمومية والوظائف العامة» أي العمل السياسي ووظائفه العليا، ولكنه يتقدم فكرياً عن ذي قبل، عندما يعلل لفروق القائمة بين الجنسين، والتي أهلت الرجل، دون المرأة، لهذه الوظائف السياسية العليا،

(١) المصدر السابق، ج ٢ ص ٢٠، ٢١.

فبعد أن كان يرى ذلك تقسيماً فطرياً وأبدياً للعمل، نشأ عن طبيعة كل جنس من الجنسين، أصبح يراه ثمرة لتأهل الرجل ومرأته، وهو الأمر الذي حرمت منه المرأة وأبعدت عنه قروناً طويلة، ومن ثم يعلق صلاح دخولها هذه الميادين على اكتسابها هذه المؤهلات وذلك المران، وهما في الإمكان. ولذلك فهو يرى أن حرمانها من هذه الوظائف السياسية العليا هو أمر مؤقت سيزول بزوال ماله من أسباب... أما عبارته المعبرة عن فكرته هذه، فهي التي يقول فيها:

«إنني ما طلبت ولا أطلب المساواة بين المرأة والرجل في شيء من المزايا والحقوق السياسية، لا لأنني أعتقد أن الحجر على المرأة أن تتناول الأشغال العمومية، حجراً عاماً مؤبداً، هو مبدأ لازم للنظام الاجتماعي، بل لأنني أرى أننا لا نزال إلى الآن في احتياج كبير لرجال يحسنون القيام بالأعمال العمومية، وأن المرأة المصرية ليست مستعدة اليوم لن شيء مطلقاً. ويلزمها أن تقضي أعواماً في تربية عقلها بالعلم والتجارب حتى تنهيها إلى مسابقة الرجال في ميدان الحياة العمومية...»^(١).

هكذا رأى قاسم أمين قضية «عمل المرأة»... وهكذا تطور فكره إزاءها ما بين سنة ١٨٩٤م وسنة ١٩٠٠م.



والآن... لقد آن الأوان لنسأل هذا السؤال:

(١) المصدر السابق، ج ٢ ص ١٦١

آية امرأة تلك التي ركز قاسم أمين حديثه عنها؟

وبنت أية طبقة من طبقات الأمة تلك التي سعى لتحريرها؟

لقد سبق لنا وأثبتنا أن قاسم أمين كان داعية مصلحاً يبشر بقيم المجتمع البورجوازي، ويدعو لفتح الطريق أمام مصر كي تتطور فتخلف عصر الإقطاع وراءها وتدخل إلى رحاب التنوير البورجوازي . . . والآن نقول: إن المرأة التي شغلت قضايا تحريرها عقل قاسم أمين، هي، في الأساس، المرأة البورجوازية، امرأة الطبقة التي كان ينتمي إليها، بنت الطبقة الوسطى، التي كانت متميزة عن بنات الأرستقراطية الإقطاعية وكبار الملاك الذين يغلب عليهم الانتماء التركي والنشركسي والانتساب لعناصر المتصرين . . . والتي كانت متميزة كذلك عن بنات الفلاحين .

ولم يكن اهتمام قاسم أمين بنساء الطبقة الوسطى تعصباً لطبقته الاجتماعية، ولا انعلاقاً على عالم خاص به من الناحية الاجتماعية، فهو بالتأكيد مصلح كان ينظر للأمة ككل، وإن غلبت عليه رؤية لونها اتماؤه الاجتماعي . . . ولكن مبعث هذا الاهتمام أنه لم يكن يعلق أية آمال على نساء الأرستقراطية الزراعية، فهن مثل طبقتهم غرباء عن روح هذه الأمة وقضاياها المصرية، يعشن كطبقتهم على هامش هذا المجتمع، ولا صلة بينهما إلا صلة الاستغلال الإقطاعي واستنزاف ريع الأرض من الفلاح .

أما المرأة الفلاحية والتاجرة والممارسة لحرفة من الحرف . . . فلقد

رأها قاسم أمين عضواً عاماً في المجتمع وطاقة متجة . . صحيح أنها لا تقرأ ولا تكتب . . صحيح أنها غير «متعلمة» . . ولكن انخراطها في الحياة العامة مع الرجل ، وفي مساواة له ، قد جعلها «ثقافة» بالخبرة والتجربة ، فهي ليست قيداً على تطور المجتمع إلى الأمام ، وإن تكن لديها طاقات أخرى كامنة يستطيع التعليم أن يطلقها من عقالها . . إن بيتها وبين الرجل ، في طبقتها ، مساواة إلى حد كبير !

أما امرأة الطبقة الوسطى فإنها كانت موضع أمل ، بل عليها - مثل طبقتها - تعلق الكثير من الآمال في قيادة نهضة الأمة وتطورها . . ومع ذلك فهي وإن «تعلمت» إلا أنها بمقاييس «الثقافة» دون امرأة الريف والحرفيين والتجار فهي الطاقة المعطلة حقاً وتاماً من بين النساء اللاتي تتعلق بهن آمال المصلحين . . ومن ثم فإن اتخاذ قضية تحريرها سجوراً لقضية تحرير المرأة عموماً هو أمر له ما يبرره ، خصوصاً من مصلح مثل قاسم أمين .

ونحن نستطيع أن نتأكد من صدق تحليلنا هذا إذا قرأنا بعض عبارات قاسم أمين .

فهو في المقارنة بين امرأة الطبقة الوسطى والمرأة الفلاحة يقول : «تساوت النساء عندنا في الجهل مساواة غير محبوبة ، ولا يظهر اختلافهن إلا في اللبس والخلى ، بل يمكن أن يقال : إنه كلما ارتفعت المرأة مرتبة في اليسر زاد جهلها ، وأن آخر طبقة من نساء الأمة ، وهي التي تسكن الأرياف ، هي أكملهن عقلاً ، بنسبة حالها .

المرأة الفلاحة تعرف كل ما يعرفه الرجل الفلاح ، مداركهما في مستوى واحد ، لا يزيد أحدهما على الآخر تقريباً ، مع أننا نرى الرجال في هذه الطبقات تربت عقولهم واستنارت بالعلوم ، ولم تتبعهم تساؤلاتهم في هذه الحركة ، بل وقفن في الطريق ، وهذا الاختلاف هو أكبر سبب في شقاء الرجل والمرأة معاً^(١) .

ثم يعرض لذات القضية ، وهو يتحدث عن «الحجاب» ، فيقول :

«وإذا أراد القارئ أن يبين صحة ما أسلفته من مضار الحجاب ، على وجه لا يبقى للريب معه مجال ، فلما عليه إلا أن يقارن بين امرأة من أهله تعلمت و بين أخرى من أهل القرى أو من المتجرات في المدن لم يسبق لها تعليم ، فإنه يجد الأولى تحسن القراءة والكتابة وتكلم بلغة أجنبية وتلعب «البيان» ولكنها جهلة بأحوال الحياة ، بحيث لو استقلت بنفسها لعجزت عن تدبير أمرها وتقوم حياتها . وأن الثانية مع جهلها ، قد أحرزت معارف كثيرة اكتسبتها من المعاملات والاختبار وممارسة الأعمال والدعوى والحوادث التي مرت عليها ، وأن كل ذلك قد أقادها اختباراً عظيماً ، فإذا تعاملنا غلبت الثانية الأولى !»^(٢) .

فالتعليم لبنت الطبقة الوسطى لم تفدها الثقافة والمعارف والخبرات بينما اكتسبت الفلاحة والتاجرة الثقافة والمعارف

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٥ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٥٧ .

والخبرات الخاصة بالحياة من العمل . . وما ذلك إلا لأن الأولى
تعيش مجتمعاً انفصالياً، عزلهما فيه الحجاب عن مصدر المعرفة
الحقة . بينما تساوت الثانية مع رجل طبقتها . فخاضا معا عمار
الحياة .

تلك هي أفكار قاسم أمين عن مشاكل المرأة الشرقية . وأراؤه
في إصلاح أمرها .

وهذه هي المرأة التي من أجلها أطلق صيحة النهضة والتحرير .

فى التمدن الإسلامى

أعجب أن نرجع إلى التمدن الإسلامى القديم، لا لنسخ منه صورة ونحتذى مثال ما كان فيه، بل لأنه يحتوى على كثير من أصول حالتنا الحاضرة. لقد انتفعت به الإنسانية. واستكملت ما كان ناقصاً منها فى بعض أدوارها. ولكن كثيراً من ظواهره لا يمكن أن يدخل فى نظام معيشتنا الاجتماعية الحالية.

إن علينا أن نزنه بميزان العقل، ونسدير فى أسباب ارتقاء الأمة الإسلامية وأسباب انحطاطها، ونستخلص من ذلك قاعدة يمكننا أن نقيم عليها بناء نتفع به اليوم وفى ما يستقبل من الزمان

وعليها كذلك أن يربى أولادنا على أن يعرفوا شئون المدنية الغربية ويقفوا على أصولها وفروعها وآثارها...].

قاسم أمين

نعني «بالتمدين الإسلامي»، هنا، تلك الآراء والنظرات التي أبداهها قاسم أمين عندما عرض «للدين الإسلامي»، و«الحضارة الإسلامية»، وموقفه من القضية الهامة التي طرحت في عصره عندما اختلف الناس في الإجابة عن سؤال: هل نعود - ونحن ننهض ونستيقظ - إلى منابعنا الإسلامية نستوحىها ونحتذيها، أم نجعل وطننا قطعة من أوروبا فكرياً وقيماً وحضارة وعلماً وعملاً؟

وقاسم أمين لم يكن مصلحاً إسلامياً، وخلفيته الفكرية الإسلامية لا تؤهله لأن يكون كاتباً إسلامياً، فضلاً عن أن يكون مصلحاً إسلامياً. بل إن طبيعته الخاصة وتكوينه الذاتي كانا يتأنيان به عن أن يكون الكاتب المتخصص والمهتم بأمور الدين. ولكنه كان، مع ذلك، غيوراً على الإسلام، تستغزه حملات خصومه عليه تحت ستار الحملة على المسلمين، أو حملات خصوم المسلمين عليهم تحت أعلام الحملة على الإسلام. ولقد كانت هذه البضاعة راجحة في عصره، لأنه كان يشهد المد الاستعماري الأوروبي على الشرق، وهو المد الذي استعان على الغزو ببعض أسلحة الغزوة الصليبية في العصر الوسيط.

ولعل ذلك هو الذي جعل أغلب حديث قاسم أمين في الإسلام، ودفاعه عنه يأتي في كتابه «المصريون» الذي رده به هجوم

دوق داركور على مصر والمصريين المسلمين . . وفي هذا الكتاب
يوضح قاسم أمين طبيعته ومزاجه حيال هذا المبحث ، فيقول :

"لست أحب الخوض في حديث عن الدين ، لأسباب تتعلق
بطبيعتي الخاصة ، وبحرصي على مراعاة اللياقة العامة ، غير أن
على في هذه المرة أن أفعل ما أكره ، لأن موضوع الدين قد سيطر
على جميع أجزاء كتاب داركور ، بل إنني لأكاد أعتقد أنه هو الذي
كان حافزاً على وضع كتابه ، ولهذا فإني أستأذنه في أن أخصص
له بدوري عدة سطور" (١).

ونحن إذا ذهبنا نطالع آراء قاسم أمين ونظراته الإسلامية فإننا
نستطيع ، في نهاية المطاف ، أن نخرج بحصيلة يمكن بلورتها في
عدد من النظريات والتقييمات ، منها ما هو صائب ومنها ما جاوزه
الصواب .

١ - فهناك ذلك التقييم الذي قدمه قاسم أمين لشخصية الإنسان
المسلم ومكوناته الذاتية ومزاجه الحضاري ، وهو تقييم يختلف
معه فيه ، ونراه قد تخلى ، وهو يخطه ، عن عنصر هام من
عناصر منهجه الاجتماعي . . فهو في المنهج يؤمن بوحدة
القوانين التي تحكم التطور في الظواهر الطبيعية والاجتماعية
والإنسانية ، ويؤكد - كما سبق وعرضنا - أن القوانين التي
حكمت وحتمت تطور المجتمعات الأوروبية ورفيها لا بد لها
وأن تفعل فعلها عندنا نحن الشرقيين . . ولكنه في نظراته
الإسلامية سلك مسيلاً مناقضاً لمعطيات هذا المنهج ، فترد يقدم

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٩٦

للشخصية الإسلامية صورة تبدل لها فيها قسمات خاصة تجعلها عصبية على التقدم والتطور والارتقاء، وتجعل منها نسيجاً إنسانياً مختلفاً اختلافاً جذرياً عن غيرها من الشخصيات، فالأمر هنا يتعدى التمايز النابع من اختلاف الشخصية القومية إلى ما هو أدخل في التباين «الطبيعي» بين المسلم وغير المسلم.

والذي نعتقه سبباً في ذلك، هو أن قاسم أمين قد جعل ما هو «واقع» «طبيعياً وأيدياً» وليس «عارضاً» يتغير ويتبدل بتغير الأسباب وتبدلها.

فهو مثلاً يقول: «إن للمسلم أفكاراً عن كل شيء»، تختلف عن أفكار الأوروبي عن هذه الأشياء، حتى أن ما يلائم أحدهما لا يلائم الثاني إلا نادراً»^(١).

وانطلاقاً من هذه المقولة يصور «شخصية المسلم» تصويراً يضع يدنا على ملامح «شخصية صوفية» متواكدة وانعزالية، لا تربطها أية روابط بالواقع في الحياة، حتى أن أحدنا إذا ذهب يبحث عن ملامح هذه الصورة في نفسه أو جيرانه، بل وفي ذوات جماهير الناس في عصر قاسم أمين، فإنه سيعود دون أن يجد لتلك الشخصية علاقة وثيقة بنا نحن جماهير المسلمين... ويكفى لشيء صدق قولنا هذا أن نقرأ تعريفه لشخصية المسلم: حيث يقول:

«المسلم: أولاً لا ينتظر سعادته في هذه الحياة، إن له، أيًا كان

(١) المصدر السابق، ج ١ ص ٣٠٥.

فكره. عالماً خيالياً تذهب إليه أحلامه طواعية، ويفضله على الواقع مهما كان ساخراً. فهو، عامة، لا يبالي كثيراً بكل ما يجتذب الأوروبي ويستحوذ على مشاعره، وإذا كانت الأطعمة الفاخرة والعروض السحرية الجذابة، واللقاءات الجماعية الممتعة تحتل مكاناً كبيراً في حياة الغربيين، فإنها قليلة التأثير على وجدان المسلم.

وكما أن المسلم، عامة، لا يقدر السعادة التي ييحث غيره عنها في هذا العالم، فإنه لا يؤمن بإمكان تحقيقها على الأرض، ومن هنا يعتكف في عالم أحلامه التي تمثل له المتع الوحيدة الخالصة الجديرة بشغل فكره، عزوفاً عن الشروة والقباب التكريم ومناجع اللذة التي يعدها أشياء عبارة خادعة، كأنما وجدت لتحرفه عن الطريق القويم، وهذا ما يجعله يبدو جاداً صموتاً سوداوى المزاج.

وهو يخشى ممارسة الوظائف العامة خشية محاسبتها على أعماله ومساءلته عن وسائل الأداء، ويهرب من العالم، لأنه بعد إغراءاته حافلة بالمخاطر، ولا يهوى كثرة الكسب حرصاً على ضمان شرف الوسائل، وهو في الواقع يحمل احتقاراً عميقاً لهذا المعدن الخسيس - (الذهب، النقد) - ولعله لهذا ينفقه دون ندم. وقد ضاعت ثروات كثيرة من المسلمين في اندفاعهم لتجدة إخوانهم. فهل هناك دليل أكبر من هذا على ازدرائهم للنقد؟ وإذا كان كثير من المسلمين يقترضون بالربا، فلست أعرف مسلماً واحداً يفرض ويأخذ رباً على ذلك، ولعل الشيء الذي لا يكاد يصدق هو أنه لا يرى في اللذة الجنسية إلا إشباعاً سفيهاً لإحدى

الحاجات الجسدية، حتى أن فنون الهوى التي أبدعها العشاق العباقر، والتي يهتم بها الغربيون، لا تحدث أثراً في نفوس المسلمين الأتقياء^(١).

هكذا صور قاسم «الشخصية العامة» «العمامة» المسلمين... وهي صورة أقل ما يقال في ثقتها؛ إنها أخذت ما هو جزئي ونادر وشاذ، فجعلته عاماً وصورته على أنه القسمات الأساسية للشخصية الإسلامية، ومن هنا جاءت أشبه ما تكون بصورة يرسمها «سائح» عابر سبيل، رغم أنها قد جاءت في كتاب يرد به قاسم على «سائح» وينتقد فيه متهج «السائحين» في رسم الصور وتأليف المعلومات وتأليف الكتب عن المواطن التي فيها يسبحون!

٢- أما الإسلام، كدين، فإن فهم قاسم أمين له كان فهمًا بسيطاً وجيداً في ذات الوقت... فهو يرى أن الكثير مما أضيف إلى الدين، بمرور العصور، الدين منه برىء، فالجانب «الديني» في الحضارة الإسلامية «محدود وسحدد، لأن الإسلام، كدين، عند قاسم أمين، هو حركة إصلاح للمسيحية وتقويم لانحرافات وتحريفات الديانات التي سبقتة إلى الظهور. ويعبارته هو: «يستطيع المتأمل المنصف أن يرى أن مهمة محمد - صلى الله عليه وسلم - كانت دينية بأقل مما كانت سياسية، فمن وجهة النظر الدينية البحتة، أراد النبي، ببساطة، إصلاح المسيحية، بإنقاذ وحدانية الله التي غرقت في التالوث الغامض والعصى على التفسير، كما أراد إذانة

(١) المصدر السابق، ج ١ ص ٣٠٨، ٣٠٩.

الخرافات السوقية والأشكال الرمزية المستعارة من الوثنية الرومانية والإغريقية»^(١).

هكذا، ببساطة وعمق، الإسلام كدين.

وعلى الذين يلتصقون بهذا الدين البسيط أن يذهبوا إلى مصدره الأوثق: القرآن، ثم إلى فئة من الأحاديث الصحيحة التي تجمع عدة شروط: شرط النصحة رواية... وشرط تعلقها بأمور الدين، بأن تكون تفسيراً لمجمل في القرآن مثلاً... وشرط موافقتها لمنطق القرآن وروح آياته... أما ما عدا ذلك من الأحاديث، حتى ما صح منها ولكن كان موضوعه الأخلاق أو شئون الدنيا، فهو ليس من الدين... ذلك «أن أقوال النبي لا تشكل جزءاً من الدين، ومن الطبيعي أن ننحى من هذه الأقوال تلك المحادثات الأليفة والنصائح الخلقية، والحكم الفلسفية التي تتضمن، دون شك، نصائح قيمة، ولكنها لا تشكل التزامات وواجبات دينية... كما يجب أن ننحى أيضاً كل ما ليس له علاقة بالفقه والتشريع، وتبقى بعد ذلك الأحاديث القليلة التي تفسر أو تكمل التوجيهات التي يتضمنها القرآن الكريم، والتي لا تعد جزءاً من الدين إلا بعد تحقق جاد من روايتها عنه أو بملاحظة تطابقها مع نص القرآن أو روحه...»^(٢).

وبسبب من بساطة هذا الدين كانت سماحته مع العلم

(١) المصدر السابق، ج ١ ص ٢٩٩.

(٢) المصدر السابق، ج ١ ص ٣٢٦.

والعلماء، حتى من اختلف مع أصوله ومعانيه، إذ «لم يحدث في أية لحظة من تاريخ ديننا الإسلامي أن ثارت حرب ضد العلم، وقد عانى من أشد النظريات مادية، فلم يسيء أبداً معاملة واحد من العلماء، وقد أذن لكل المعتقدات أن تحيا جنباً إلى جنب»^(١).

ومن هنا، ولهذا الفهم المستنير الذي فهم به قاسم أمين الدين الإسلامي، كانت إشارته الهامة إلى تلك الإمكانيات غير المحدودة المفتوحة أمام انتشار الإسلام في أوروبا... فالتنهضة والاستنارة والعقلانية التي سادت وتسود المجتمعات الأوروبية لا يتلاءم مع أهلها إلا دين يتميز بهذه البساطة والعقلانية والبعد عن الخرافة والاقتصاد في الغيبيات... وهذا الدين هو الإسلام.

ولقد كان قاسم أمين، برأيه هذا، يشارك عدداً من المستشرقين والأوروبيين الذين دخلوا الإسلام، وآخرين منهم لم يسلموا ولكنهم رأوا الإصلاح الديني البروتستانتي هو استعارة واستفادة جزئية من روح الإسلام وتعاليمه. وأن خط سير أوروبا نحو المزيد من الاستنارة والعقلانية سيدفع بمستنيريهما شيئاً فشيئاً إلى الإسلام.

أما عباراته التي صاغ فيها فكرته هذه فهي التي تقول:
«إنني أبعد ما أكون عن التعصب، غير أنني أعتقد أن الإسلام هو أفضل راية يمكن أن نجتمع حولها البشرية كلها متحدة في عقيدة

(١) المصدر السابق، ج ١ ص ٣٢٥

واحدة؛ ذلك أن الإسلام ببساطته، وباختفاء الصوفية من نصوصه، وبإيجابيته الخلقية، وإمكان تلاؤمه ببساطة أصيلة مع كل التطورات، وبتسامحه الكبير الذي يتميز به، يجمع، في رأي، مؤهلات تكفي لترشيح نفسه ليكون دين العالم كله، وذلك هو ما اعتقد أنه الحلم الذي كان يطمح إليه القرآن، والذي أوشك أن يتحقق في إحدى اللحظات؛ ذلك أنه دين القطرة في شكله البسيط، المؤهل لإرضاء الجزء الأعظم من البشرية التي لا تستطيع، رغم كل شيء، أن تقبل الحياة دون أن يعيش في وجدانها أمل خيالي رائع^(١). . . إن الإسلام الذي ظل طويلاً يمثل القوة والنور في العالم كله، لا يزال يملك ذخيرة ثقافية وعظيمة خلقية تتيح له أن يصل حلقات السلسلة المحطومة، وأن يعيد إيقاد الشعلات المنطفئة!^(٢).

هذا عن الإسلام كدين.

٣- ويدرك قاسم أمين كيف شوه الواقع البائس تلك الصورة الجميلة لحقيقة دين الإسلام. . . وهذا الواقع البائس يمثل عنده في «الفقهاء ورجال الدين».

صحيح أن الإسلام ليس به «سلطة دينية» ومن ثم فليس به ما يسمى «رجل الدين»، وكما يقول: «فإننا لا نملك هذه المؤسسة الهائلة المهيبة التي تسمى الكنيسة، وليس هناك شيء يمثل السلطة

(١) المصدر السابق، ج ١ ص ٣٢٨.

(٢) المصدر السابق، ج ١ ص ٣٣٨.

الدينية وسطنا، إن كل مسلم هو نفسه سلطان روحه، وليس
لعلمائنا أو شيوخنا أية شخصية عامة أو دينية، وليس لهم من
السلطة إلا ما نعترف به نحن لمعارفهم»^(١).

ولكن هذا المبدأ الإسلامي الجوهرى الرائع شىء والتطبيق
الواقعى شىء آخر، فكما قللنا الأهم والديانات الأخرى فى أمور
كثيرة، قللناهم فى ظهور فئة من «علماء» الدين، امتنوا الدين
مهنة، فتحولوا عملياً إلى «رجال» دين! ثم كان لهم، تاريخياً،
الدور المعوق للتقدم الحضارى للمسلمين، كما يقول قاسم أمين
مصوراً الدور السلبى الذى لعبه نفر من الفقهاء فى تاريخنا
الحضارى... «فلقد أسست المدنية الإسلامية على الأساس الدينى
والأساس العلمى... ولكن لما كان العلم فى تلك الأوقات فى أول
نشأته، وكانت أصوله ضروياً من الظنون لا يؤيد أكثرها بشىء من
التجارب، كانت قوة العلم ضعيفة بجانب قوة الدين، فتغلب
الفقهاء على رجال العلم، ووضعوه تحت مراقبتهم، وزجوا
بأنفسهم فى المسائل العلمية، وانتقدوها... وما زالوا يقطعون على
رجال العلم ويرمونهم بالزندقة والكفر حتى نفر الكل من دراسة
العلم وهجروه، وانتهت بهم الحال إلى الاعتقاد بأن العلوم
جميعها باطلة إلا العلوم الدينية، بل غلوا فى دينهم وشططوا فى
رأيهم حتى قانوا فى العلوم الدينية نفسها إنها لا بد أن تقف عند
حد لا يجوز لأحد أن يتجاوزه، فقررروا أن ما وضعه بعض
الفقهاء هو الحق الأبدى الذى لا يجوز لأحد أن يخالفه!»^(٢).

(١) المصدر السابق، ج ١ ص ٢٦٠.

(٢) المصدر السابق، ج ٢ ص ٢٠٤.

وإذا كان التطور قد أصاب الكثير من مناحي حياتنا منذ مطلع القرن التاسع عشر، وفعل فعله في عدد عديد من الدوائر الفكرية، فلقد ظل التخلف والجمود طابع الكثير من فقهاءنا وشيوخنا ومذهب مراكز التوجيه الديني الرسمية . . وقاسم أمين يصور عالم بعض هؤلاء الشيوخ والمقهاء، عندما يقول :

« . . تلك هي الحال التي تردى فيها بعض شيوخنا، الذين كان عليهم أن يقدموا لنا وصفاً تفصيلياً عن السماء والجنة والنار تروحي لنا دقته بالإيمان بمعرفتهم لها معرفة حقيقية، بينما هم يجهلون كل شيء عن الأرض ! وليس في هذا ما يشير الدهشة : ذلك أنهم بدلاً من أن ينظروا إلى العلم السماوي بوصفه قمة جميع العلوم، لجدهم لا يجمعون المعارف الأولية التي يعيها تلميذ المدرسة الابتدائية، ولا يوسعون أبداً نطاق دراساتهم، ولذلك فإن هؤلاء الشيوخ هم كتب رائعة فاشقة، لكنهم فقدوا منذ وقت طويل ملكة التحليل والتعليل، وهؤلاء الجبهة هم الذين يدعون فهم الفلسفة الدينية وقدرتهم على تفسيرها، وينصبون من أنفسهم حماة الرسالة النبوية، ويدعون السهر على حفظ الدين وعلى نقائه وحسن تطبيقه . . إن هؤلاء ليسوا إلا أدعياء شديدي الوفاة، يختفون الذكاء ويحولون بين الفكر وبين البحث، ويبدشون الوصايا الزائفة، ويبتكرون الحيل للإفلات من قسم أو التحرر من أحد الواجبات الدينية . . إنني أعلن، مع ذلك، ضرورة إدخال إصلاح محدد يتمثل في تزويد المرشحين للدراسات الدينية بمعارف منطقية وعلمية، حتى يستطيعوا بواسطة التعليم أن

يتزعموا من عقول بعض المسلمين جميع المعتقدات السيئة التي تهدد بخلق الدين، وأن يرشدوهم إلى طريق العودة إلى بساطة قواعد الإسلام الخمسة، فقد كانت وحدها كفيلاً بنشر الإسلام في جميع أرجاء العالم، ولا تزال وحدها قادرة على إنقاذه من كارثة مدمرة...»^(١).

٤- أما الحضارة الإسلامية، وبالذات التنظيم السياسي في هذه الحضارة، فلقد اختلف إزاءه مرقف قاسم أمين، أو تغيير وتطور في تقييمه لهذا الجانب من جوانبها... ولقد كان تعرضه لهذا الجانب الهام يأتي بمناسبة الحديث عن صلاح هذه الحضارة التاريخية كمدبل للتحلف، وأيضاً كبديل للأخذ بالنمط الأوروبي الذي جاء إلى الشرق في ركاب الغزاة؟

فنحن نلمح قاسم أمين في مرحلة كتابه "المصريون" سنة ١٨٩٤م ميل إلى وجود "تنظيم ونظام سياسي إسلامي"، كقسمة في حضارتنا الإسلامية، وهو يرجع ازدهار المسلمين وحضارتهم إلى تطابق نظامهم السياسي مع تعاليم دينهم، فلما أهملوا تعاليم الدين انهار كل البناء... فالعيب هنا، كما يراه، ليس في المنظمات السياسية... فهو يقرر "أن المسلمين عرفوا العظمة حين كان لهم تنظيم سياسي إسلامي، وخاصة حين كانت حياتهم وسلوكهم متطابقين مع الأخلاقيات والوصايا الإسلامية التي بدأت فأساتهم يوم ابتعدوا عنها، ولو كان لي أن أحدد أسباب تخلف العالم

(١) المصدر السابق، ج ١ ص ٣٢٦-٣٢٨.

الإسلامي لو وضعت إهمال تنفيذ التعاليم الدينية على رأس
العوامل الهامة لذلك...»^(١).

ولكنه يرجع عن هذا الرأي في مرحلة كتابيه «تحرير المرأة» سنة
١٨٩٩م و«المرأة الجديدة» سنة ١٩٠٠م، فينكر أن يكون المسلمون
قد عرفوا النظمات السياسية أصلاً في مجتمعاتهم وتاريخهم،
ويرجع انهيار حضارتهم وشيوع الاستبداد بالمرأة في تاريخهم إلى
افتقارهم هذه النظمات، فيقول مثلاً:

«تجردت الجمعيات الإسلامية (أي المجتمعات)، على اختلاف
الأزمان والأماكن، من النظمات السياسية التي تحدّد حقوق
الحاكم والمحكوم، وتحويل للمحكومين سيطرة الحاكمين بالرفق
عند الحدود المقررة لهم بمقتضى الشريعة والنظام، بل أخذت
حكومتها الشكل الاستبدادي دائماً... وأساء حكامها في
التصرف... بل لعبوا بالدين نفسه في أغلب الأزمنة، ولا يستثنى
منهم إلا عدد قليل لا يكاد يذكر بالنسبة إلى غالبيتهم...»^(٢).

ثم يعود إلى تقرير الفكرة في مرحلة تالية ومكان آخر فيقول:

«... وأما من جهة النظمات السياسية، فإننا مهما دققنا
البحث في التاريخ - (الإسلامي) - لا نجد عند أهل تلك العصور ما
يستحق أن يسمى نظاماً، فإن شكل حكومتهم كان عبارة عن
خليفة أو سلطان غير مقيد، يحكم موظفين غير مقيدين... ربما

(١) المصدر السابق، ج ١ ص ٣٠٦.

(٢) المصدر السابق، ج ٢ ص ١٦.

يقال: إن هذا الخليفة كان يولى بعد أن بايعه أفراد الأمة، وإن هذا يدل على أن سلطة الخليفة مستمدة من الشعب الذي هو صاحب الأمر.

ونحن لا ننكر هذا، ولكن هذه السلطة التي لا يتمتع بها الشعب إلا بضع دقائق هي سلطة لفظية، أما في الحقيقة فالخليفة هو وحده صاحب الأمر.

ومن الغريب أن المسلمين في جميع أزمان عذبتهم لم يبلغوا مبلغ الأمة اليونانية، ولم يتوصلوا إلى ما وصلت إليه الأمة اليونانية من جهة وضع المنظمات اللازمة لحفظ مصالح الأمة وحريتها، فقد كان لتلك الأمم جمعيات نيابية ومجالس سياسية تشترك بها مع الحاكم في إدارة شئونها.

وأغرب من هذا، أن أمراء المسلمين وفقهاءهم لم يشكروا في وضع قانون يبين الأعمال التي وجدوا أنها تستحق العقاب ويحددوا العقوبات عليها، بل تركوا حق التعزير إلى الحاكم يتصرف فيه كيف يشاء، مع أن بيان الجرائم وعقابها هو من أوليات أصول العدالة.

ولست محتاجاً أن أقول: إنهم ما كانوا يعرفون شيئاً من العلوم السياسية والاجتماعية والاقتصادية... فإذا كانت حالتهم السياسية هي كما ترى، فما الذي يطلب منا أن نستعيره منها؟! (١).

ونحن نعتقد أن هذا التقسيم الذي أعطاه قاسم أمين لقسمه

(١) المصدر السابق، ج ١ ص ٢٠٦، ٢٠٧.

النظمات السياسية في حضارتنا هو تقسيم ظالم وغريب ، قد
جانب صاحبه الصواب . . كما نعتقد أن أهم الأسباب التي تكمن
وراء ذلك هي :

أ - أنه لم يفرق ويميز بين « الحضارة » وبين « التاريخ » ففي
حضارتنا فكر سياسي ، وضع قواعد للشورى ، وأشار إلى هيئات
تنهض بمهام اختيار الحاكم والرقابة عليه ، وحدد قواعد الفصل
بين السلطات ، وأعطى توصيفاً وتحديداً رائعاً للجرائم
والعقوبات .

ويكفى أن ندل على خطأ قاسم أمين - هنا ، وهو ينفي أن يكون
المسلمون قد وضعوا قانوناً يحدد الجرائم والعقوبات - بما قاله هو
نفسه عن هذا القانون وعن الفقه الإسلامي ، عندما أشار في كتاب
« المصريون » إلى أصالة هذا الفقه ، ووصفه بأنه « أعظم نصب
أقامه العقل البشري » ، ونفى أن يكون منقولاً عن القوانين
الروماني ، وأكد « أنه يستمد أصالته من آيات القرآن وأحاديث
الرسول ﷺ » (١) .

لكن قاسم أمين نظر في « التاريخ » ، والتاريخ السياسي
بالذات ، فوجد قسمة الاستبداد الفردي بالحكم تغطي المساحات
الشاسعة من قرون الحكم الإسلامي والبلاد الإسلامية ، ثم هو لم
يميز بين تراث هذه الأمة الحضاري وإبداعها في السياسة والنظم
السياسية والتشريع وبين حيولة النظم الاستبدادية بين هذه النظم
وبين التطبيق .

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣١٩

ب - لم يلتفت قاسم أمين إلى دراسة الحركات الفكرية والتيارات الثورية وأحزاب المعارضة التي استمرت طوال عصور التاريخ الإسلامي تجاهد كي تضع في التطبيق ثمرات اجتهاد هذه الأمة الفكرية في القانون والشورى والعدل الاجتماعي . . ولو أنه التفت إلى دراسة هذه القسمة لرأى أشياء أخرى مشرفة تقف إلى جانب ظلمات الحكم الاستبدادي الذي عرفه هذا التاريخ .

ج - وأخيراً . . فلو أتاحت له فرصة الاطلاع على تراث هذه الأمة في الفكر الاقتصادي ، وما كتبه علماءؤها في (الأموال والخراج) لرأى جذوراً عميقة لأكثر النظريات الحديثة جنوحاً نحو العدل والإنصاف ، ولما قال إن المسلمين «لم يعرفوا شيئاً من العلوم السياسية والاجتماعية والاقتصادية» .

بل لو قد اطلع على قوائم عناوين تراثنا في الفكر السياسي والاقتصادي - قوائم العناوين فقط - لتردد قبل أن يصدر هذه الأحكام!

د - أما قسمة «الفكر الاجتماعي» في الحضارة الإسلامية والتمدن الإسلامي ، فإن قاسم أمين يعجب بها كل الإعجاب ، كما أن رؤيته لها تستحق هي الأخرى منا التقدير والإعجاب .

فهو يرى أن الإسلام يتميز بالانحياز إلى «نوع من الجماعة» و«الاشتراكية» قد أقامه على رفض «الفردية» التي أشعلت بغضاء الصراخ الطبقي في المجتمعات الأوروبية ، وعلى استبدال هذه «الفردية» بتقرير «اشترك» الفقراء في الأموال التي هي في حوزة

الأغنياء... . وبسبب من هذه الفلسفة التي هي محور الموقف الاجتماعي للإسلام، فإن "العمل" هو المعيار الوحيد للكسب والحيازة والدخل الاقتصادي، وإن الشعار - الاشتراكي - القائل : "من كل حسب عمله" ، هو شعار إسلامي تماماً ومقبول من المسلمين بالتأكيد... . وبسبب من هذه الفلسفة أيضاً فإن الإسلام يرفض الحواجز الطبقية التي عرفتها وتعرفها المجتمعات التي فرقتها الملكية والامتيازات إلى طبقات ثابتة، كما يرفض أن تكون الوراثة أو الثروة معياراً يحل محل العمل في كسب الجاه والثروة.

"فالإسلام لم يعرف قط امتيازات الميلاد أو الثروة وقد سبق بهذا أكثر النظم السياسية ثورية وأكثر من ألف عام... . فليس من العدالة أن تكون صدفة الميلاد في إحدى البيئات مصدراً لموضع متميز... . لقد كان المبدأ القيم عند بعض الاقتصاديين، والقائل : (من كل حسب عمله) وسبقني، دائماً شعارنا، أننا جميعاً أبناء أعمالنا... . لقد نظم الإسلام توزيع الثروة، وأعلن اشتراك الفقراء في ملكية أموال الأغنياء... . وهذا - كما هو واضح - حل للمشكلة الاجتماعية بواسطة نوع قريب من الجماعية.

أو لا ترى مثل هذا الدستور ما يوفق بين المصالح وما يهدئ جميع الخواطر؟ أليست هذه الاشتراكية أكثر سموً وأقرب إلى الواقع العملي من تلك النظم التي تتحدث عنها أوروبا، والتي يتجلى قصورها وصعوبة تنفيذها؟ إنني أشهد في أوروبا نفوساً حائرة، وعقولاً قلقة، وصراعات بين الطبقات تتزايد حدتها، فيرتعد الأغنياء، ويصرخ الفقراء، وتترأى أعراض زلزال هائل

رهيب... إن أى مجتمع إسلامى لا يمكن أن يقوم إلا على تنظيم ديموقراطى، فهو ينهض على أساس فكرة المساواة والإخاء... ولا يعياً بأداب المجتمعات الشكلية، فى أوروبا، والتي تفصل بين الأغنياء والفقراء، بين النبلاء والعامه، فالكل داخل فى الكل، وامتزاج الطبقات كامل.

أو يمكن بعد أن يعرف الإنسان كل ذلك أن يتذوق شيئاً آخر ويحبه؟! ^(١)

فهو هنا لا يسوى بين «جماعية الإسلام» و«اشتراكيته» وبين نظيرهما فى الفكر الأوروبى، بل يميز بينهما، ويفضل المنطلق الإسلامى لتنظيم المجتمع على أساس من فلسفته - فلسفة الإسلام - فى هذا الميدان.

٦ - وأخيراً... نأتى إلى تلك النقطة الهامة فى فكر قاسم أمين عن «التمدن الإسلامى»... والخاصة بالموقف من «نوح» الحضارة التى يدعو إليها قومه، ويحبذ أن تكون طريقهم لتجاوز التخلف «المملوكى - العثمانى»، ويشيد باعتمادها نمطاً للتقدم والتطور.

فمعلوم أن عصر قاسم أمين كان استمراراً لعصر اليقظة والنهضة والتجديد الذى بدأ منذ مطلع القرن التاسع عشر... ومعلوم كذلك أن دعاة النهضة كانت تنوزعهم دعوتان أساسيتان:

(١) المصدر السابق، ج ١ ص ٢٥٩، ٢٦٢

الأولى : ترمى إلى الأخذ بنمط الحضارة الغربية كاملاً ،
وتستهدف جعل مصر - ومن ثم الشرق - قطعة من أوروبا .

والثانية : ترمى إلى الاستفادة من « أدوات » النهضة والحضارة
الأوروبية ، مع جعل منطلقاً لنا عربية إسلامية ، وطابعاً عربياً
إسلامياً ، وبناء حضارة عربية إسلامية معاصرة ومتطورة ، تتميز
كثيراً عن حضارة الأوروبيين .

ولقد بدا قاسم أمين ميالاً - وإن يكن في تردد شديد - إلى التيار
الثاني ، ثم عاد فانخرط تماماً في سلك دعاة التيار الأول .

فهو في مرحلة كتابه « المصريون » سنة ١٨٩٤ م يقارن بين
الحضارة الأوروبية وبين الحضارة الإسلامية ، ثم يحكم بأن الظفر
إثنا هو من نصيب الحضارة الإسلامية الأصيلة . يقول : إنه « إذا
كانت توجد اليوم حضارة إسلامية خالصة إلى جانب الحضارة
الأوروبية ، فإن الأصالة هي الظاهرة »^(١) .

ثم يعود فيتردد في الاختيار بين الحضارتين ، وخاصة عندما
يكون المقام خاصاً بالحديث عن « الاختيارات » والمبادئ المطروحة
أمام النهضة المصرية . . . يتردد ، ولكنه ينيب إلى أن مصر قد اختارت ،
بالفعل ، النمط الأوروبي ، وأن العودة منه تكاد تدخل في عداد
الاستحيالات . . . ذلك أن أمام مصر « طريقين : العودة إلى تقاليد
الإسلام ، أو محاكاة أوروبا » ، وقد اختارت الطريق الثاني .

« وليس عليّ أن أحكم عليّ جدارة هذا الاختيار ، لقد مضت

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٠٥

في أثر حركة الحضارة الأوروبية التي تحتاج كل مكان، والتي تبدو استحالة مقاومتها... أنها قد خطت اليوم بعيداً في هذا الطريق حتى يصعب عليها الارتداد عنه، إن مصر تتحول إلى بلد أوروبي بطريقة تشير الدهشة، وقد أخذت إدارتها وأبنيتها وأثارها وشوارعها وعاداتها ولغتها وأدبها وذوقها وغذائها وثيابها تنسم كلها بطابع أوروبي، إنها تهتم بكل ما تكتبه أوروبا أو تفعله، وتجذ كل الأفكار التي تحرك حماس أوروبا صداها هنا^(١).

وفي مرحلة كتاب «المرأة الجديدة» سنة ١٩٠٠ م يحسم قاسم أمين هذا التردد، وذلك عندما يقرر أن التمدن الإسلامي ليس فيه، حضارياً، ما يصلح للعطاء المعاصر وأن دراستنا له يجب أن تستهدف الدراسة التاريخية، للتقييم، وكشف الجذور، والاستفادة من الأخطاء حتى لا تتكرر... أما طريق اليوم والعقد فلا علاقة له بهذا النمط الحضاري الذي ساد في تلك العصور... يقول:

«إنه يجب على كل مسلم أن يدرس التمدن الإسلامي ويقف على ظواهره وخفاياه، لأنه يحتوي على كثير من أصول حالتنا الحاضرة، ويجب عليه أن يعجب به لأنه عمل انتفعت به الإنسانية وكمثلت به ما كان ناقصاً منها في بعض أدوارها، ولكن كثيراً من ظواهر هذا التمدن لا يمكن أن يدخل في نظام معيشتنا الاجتماعية الحالية... يجب علينا أن نلتفت إلى التمدن الإسلامي القديم، ونرجع إليه، ولكن لا لننسخ منه صورة ونحتذي مثلاً ما كان فيه

(١) المصدر السابق، ج ١ ص ٢٦٣.

سواء بسواء، بل لكي نزن ذلك التمدن بميزان العقل، ونقدبر في أسباب ارتقاء الأمة الإسلامية وأسباب انحطاطها، وستخلص من ذلك قاعدة يمكننا أن نقيم عليها بناء نتوقع به اليوم وفي ما يستقبل من الزمان

ثم يزيد الأمر وضوحاً عندما يقول :

"إن تمسكنا بالماضي إلى هذا الحد هو من الأهواء التي يجب أن نهض جميعاً لمحاربتها، لأنه ميل يجرنا إلى التذني والتقهقر، ولا يوجد سبب في بقاء هذا الميل في نفوسنا إلا شعورنا بأننا ضعاف عاجزون عن إنشاء حالة خاصة بنا تليق بزماننا، ويمكن أن تستقيم بها مصالحنا، فهو صورة من صور الاتكال على الغير، كأن كلامنا يناجي نفسه قائلاً لها: أتركي الفكر والعمل والعناء، واسنديني فليس في الإمكان أن تأتي بأبدع مما كان!

* * *

هذا هو الداء الذي يلزم أن يبادر إلى علاجه، وليس له من دواء إلا أن نربي أولادنا على أن يعرفوا أشئون المدنية الغربية ويتقنوا على أصلها وفروعها وآثارها! (١)

تلك هي أفكار قاسم أمين ونظراته فيما سماه "التمدن الإسلامي" . . . وهي أفكار ونظريات جمعت بين ما هو خطأ وما هو صواب، وشهد بعضها تطوراً من الصواب إلى الخطأ أو من الخطأ إلى الصواب!

(١) المصدر السابق، ج ٢ ص ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٩

مصر.. والمصرية.. والمصريون

[إن المصريين - مسلمين وأقباطاً - ينتمون إلى جنس واحد.. والمصري لا يرهب الموت ولا الآلام، غير أنه يحتمل بعض الإهانات؛ لأن السلطة أفقدته وعيه حتى ظن أنه مخلوق لمعاناة نزواتها! إنه لا تنقصه القوة الجسدية ولا الطاقة المعنوية.. إن ما يحتاج إليه هو النهوض والتوجيه السليم، لكي يصبح قوة عظمى.

وليس يباح للإنسان يحترم نفسه أن يخجل من وطنه، ولا أن يقضب عليه إلا كما يقضب الولد من أبيه غضباً ممزوجاً بالأسف والخجل..

قاسم أمين

يؤمن قاسم أمين بأن المصريين شعب واحد متحد . . . فليس بين مسلميه ومسيحييه فروق عرقية قديمة ، لأن المسلمين المصريين هم أقباط أسلموا ، وليسوا وافدين من شبه الجزيرة العربية كما يظن بعض السذج من الجاهلين أو سيئي النية !

وهو يؤمن كذلك أن اختلاف المصريين في الدين لم يكن له تأثير في يوم من الأيام على وحدتهم الوطنية الراسخة ، تلك الوحدة القائمة على فسمات الوطنية بمعناها الحديث والمصالح الوطنية الواحدة التي تجمعهم جميعاً بصرف النظر عن اختلاف المعتقدات . . . فعنده أن « من المؤكد أن المصريين المسلمين الذين نراهم في المدن ، وخاصة في الريف ، ليسوا من نسل العرب ، وليسوا عرباً إلا باللغة والدين ، وتكفي ملاحظتهم للافتتاح بأنهم نفس النماذج القبطية ، وإني أؤمن - وهو ما تؤكد الملاحظة أيضاً - أن المسلمين المصريين ليسوا إلا أقباطاً اعتنقوا الدين الإسلامي .

ويشكل المسلمون والأقباط - رغم اختلاف الدين - كلاً متناسقاً يتحدث نفس اللغة ، ويرتدي نفس الثياب ، ويمارس نفس العادات ، ولم يحدث قط - منذ بدأوا يعيشون معاً جنباً إلى جنب - أن وقع بينهم خلاف جاد . لقد ربطت المآسى المشتركة بينهم بعاطفة وطنية ، جعلتهم يرتفعون بمصلحة الجماعة فوق

الاختلافات الدينية ، ويكفى أن نذكر هؤلاء الذين يتمنون فصرم
وحدثنا ، بأن الأقباط أثناء ثورة عرابي كانوا يسبّرون مع المسلمين
يداً في يد ، وأنه لم يطف بخيال مسلم أيامها أن يحرك القلق في
قلب قبضي ، بينما وصف المسلمون الأتراك والشر كس بأنهم أعداء
مصر! ^(١).

فتحن هنا بإزاء شعب واحد ، تربط أبنائه جميعاً روابط الوطنية
بمعناها الحديث .

وقاسم أمين يدرك دور النهضة الحديثة التي شهدتها مصر منذ
حكم محمد علي في تكوين هذا «الوطن» المصري الحديث . .
ففي ظل هذه النهضة قامت «الدولة المدنية» الحديثة ، وبرزت
«حقوق المواطنة» لكل المصريين كرباط يعلو على غيره من الروابط
الاعتقادية . . وفي ظلها كذلك أطلق العنان ، إلى حد كبير ،
للكات الإنسان المصري فأبدع وأثبت جدارته بميراثه الحضاري
العريق في كل الميادين . . وبسبب كل ذلك عرف الإنسان المصري
معنى الافتخار الوطني والاعتزاز بالوطن ، مما جعله يقارن نفسه
ووطنه بأرقى الأوطان دون أن تحول عقد النقص بينه وبين الاعتزاز
بماله من طاقات وما أحرز ويحرز من إنجازات .

« . . . فيوم تشكل الوطن المصري ، أو وطن المصريين على يد
محمد علي الطيبة ، لم ييخل المصريون بدمهم في سبيل أن
يضيفوا على وطنهم أروع بريق ممكن . . إن المصري ليس جباناً

(١) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٥٧ ، ٢٥٨

البسته، وإنه لا يرهب الموت ولا الآلام، غير أنه يحتمل بعض الإهانات، لأن السلطة أفقدته وعيه، حتى ظن أنه مخلوق لمعانة نزواتها. إنه لا تنقصه القوة الجسدية، كما لا تعوزة الطاقة المعنوية، إن ما يحتاج إليه هو النهوض، والتوجيه السليم لكي يصبح قوة عظمى»^(١).

وإن تلك الإهانات والمظالم التي توقعها السلطة الجائرة بالإنسان المصري، يجب - في رأي قاسم أمين - ألا تجعل آثارها السلبية عيوننا وبصائرنا تضل وتزيغ عن إدراك الجوهر الحقيقي والرائع لذلك الإنسان المصري الأصيل... فلقد يستخفى هذا الجوهر تحت مظاهر الفقر والآلام، ولكنه أبداً لا يغيب ولا يذوب ولا يزول... «صحيح أننا لا نزال نعرف شقاء كبيراً في ريفنا، فالفلاحون والأطفال يعيشون في حالة حرمان من النظافة وفي إملاق مثير للشفقة... غير أنه تحت هذه القشرة من وحل الفقر يتجلى الجسد نظيفاً دائماً، بفضل الوضوء خمس مرات كل يوم، وغالباً ما تشمخ فوق هذا الجسد - كما تشمخ الزهرة - رأس ذكية»^(٢).

ولقد دعت هذه النظرة الموضوعية والرؤية العميقة قاسم أمين إلى أن يدعو قومه إلى التمييز ما بين النقد الموجه للواقع بهدف إصلاحه وتطويره، وما بين ذلك النقد الهادف إلى الاستعلاء

(١) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٦٤، ٢٦٥.

(٢) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٥٦.

على الوطن والبراعة من الانتساب إلى «المصرية»، فقال قوله
الرائعة:

«إنه لا يباح للإنسان يحترم نفسه أن يخجل من وطنه، ولا أن
يغضب عليه إلا كما يغضب الولد من أبيه غضباً ممزوجاً بالأسف
والحنن».

وهذا «الغضب» يعنى عنده أن تنهض نحن «بانتقاد عيوبنا
بأنفسنا، وعدم إخفاء شيء منها، حتى لا نغفل عن تلافيها، إن
ذلك أولى من أن يلتقيها يوماً في وجهنا عدو لنا!»^(١).

أما هؤلاء الذين يتخذون سبيل الاستعلاء على الوطن وأهله،
محتجين بأن لهم أصولاً تركية أو عربية - غير مصرية، فإن قاسم
أمين يستخر منهم وينهاجهم، ويراهم خارجين على الواجب
الذي يقتضى احترام جوهريات القومية وقسماتها الأساسية...
يقول: ذلك «لأن أهم شيء يحفظ الأمم ويريد رفعة شأنها هو
احترام جسلة أمورها الجوهرية الأساسية، مثل: الدين، والوطن،
والسلطة العمومية، والعائلة، والعلم، والمضيلة، وكل عمل
شريف أو جميل أو نافع».

ونحن معاشير المصريين، وبنا للأسف، لا نحترم وطننا، ولا
نعرفه، وكثيراً ما نتكلم عنه بالاستخفاف والاحتقار ونحكم عليه
كما نسمع من الأجانب الذين لا يمكن أن يعرفوه كوطن لهم بحال
من الأحوال. وفاتنا أن كل عيب منسوب له هو منسوب في

(١) المصدر السابق - ج ١ ص ٢٢٤

الحقيقة لنا، حتى أن كلمة (فلاح) التي كان الأتراك يستعملونها في مقام الدم عندما كانوا يتكلمون عن كل ما هو مصري، اتخذها المصريون عنواناً على احتقار بعضهم بعضاً.

ومن هذا القبيل أيضاً نرى بعض الأشخاص الذين ولدوا في هذه الديار من آباء ولدوا فيها، بعد أن ترك أجدادهم بلادهم، ولم يبق لهم أمل في العودة إليها، يجتهدون دائماً أن يثبتوا أنهم من أصل تركي أو سوري أو عربي، ولا يكادون يعترفون - وخصوصاً أمام الأجانب - أنهم من أبناء البلاد التي يرتعون في خيراتها ويعيشون من نعيمها.

وبديهي أن المصريين لو كانوا يحترمون وطنهم لما تجاسر أحد على تبرئة نفسه من الانتساب إليه، كما يدفع المتهم نسبة الجناية إليه عنه! ^(١).

وهذا الحس المصري الصادق الذي تميز به قاسم أمين، لا تجد فيه شائبة تشير إلى أصله التركي - كما هو واضح من عباراته السالفة - بل إنه يؤكد أن التعلق «بالتركية والأتراك» هو محض وهم، لأن العناصر التركية التي استقرت بمصر قد ذبل دورها، وفقدت دورها المستقل في المجتمع، «فهذا الجنس قد انكمش الآن، أو ذاب في المصريين» ^(٢).

كما أن هذا الحس الوطني الصادق لم يجعله يتخذ الموقف

(١) المصدر السابق، ج ١ ص ٢٢٣، ٢٢٤.

(٢) المصدر السابق، ج ١ ص ٢٥٨.

« المتعصب » الذي ينكر مزايا الآخرين . . فهو يذكر لبعض الأوروبيين الذين خدموا مصر ، فضلهم في توفير أهلها وخدمة مرافقها ومشاركتها السراء والضراء^(١) .

ويذكر للأتراك - رغم مأساة احتلالهم لبلاد وظلمهم لأهلها - ما استفادته منهم « الأمة المصرية » فلقد « وجدت فيهم إنسانية راقية ، فاقتبست منه بالمعاشرة والمصاهرة : النظافة ، وترتيب المسكن ، والتفاني في الملبس والمأكل ، وكثيراً من العادات الحسنة والصفات الأدبية . . » .

ويلفت النظر إلى ظاهرة تفضيل المصريين الزواج من التركيات ، ويرجعه إلى نظافة المرأة التركية وذكائها وكفاءتها كزوجة^(٢) .

وكما وجه نقده لتفرد من المصريين المنحدرين من أصول غير مصرية ، وإلى نفر من الأوروبيين الذين كان همهم الأول « جمع الثروات في أسرع وقت ممكن والرحيل بها بعد ذلك » عن مصر ، دون أن « تحتذ بهم الحركات العلمية والأدبية » تراه كذلك قد تنبه للدور « الطفيلي » الذي قام به اليهود في استنزاف ثروة الوطن دون أن يضيقوا إليه إنتاجاً يوازي ما يحصلونه من أرباح ، فيقول عنهم : إن « اليهود يشكلون أكثر أجزاء السكان » (في مصر) - استفادة ، فهم - عدا استثناءات قليلة - لا يتجبنون شيئاً ، ويجنون مع ذلك أرباحاً كثيرة^(٣) .

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٥٨ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٦٦ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٥٨ .

وهو بذلك يدرك وينبه إلى حقيقة أنهم إنما يهتمون بالكسب
من المهن «الوسيلة» و«السمسرة» و«العمولات»، ولا يفتنون
على المخاطرة بتوظيف أموالهم في مشاريع الإنتاج.



وبسبب من ذلك المفهوم الخدث الذي أعطاه قاسم أمين
لمصطلح «الوطنية» . . . ولتخليده أن الوطن المصري قد تكونت
لأهله خصائص المواطنة وعلائقها في ظل النهضة الخديشة التي
أقامتها تجربة محمد علي . . لكل ذلك كان تقييمه لهذه التجربة
أمراً يستحق منا إلقاء بعض الأضواء.

ويريد ذلك الأمر أهمية أن قاسم أمين هو واحد من مدرسة
الإمام محمد عبده الفكرية . ولقد كانت لمحمد عبده آراء في
محمد علي وتجربته شوهت الكثير من إيجابيات تلك التجربة،
بسبب ذلك الصراع الذي قام بين الأستاذ الإمام وتياره الفكري
وبين الخديو عباس حلمي والأسرة الحاكمة . . ومع ذلك فإن
قاسم أمين قد قيم تجربة محمد علي تقييماً إيجابياً، وكان منصفاً
في عرض منجزاتها الوطنية كل الإنصاف .

فهو يرى فيها المرحلة التاريخية التي ظهر فيها «الوطن المصري
الخديث» . . والمناخ المصالح الذي أظهر الطاقات الحضارية الكامنة
للعنصر الوطني المصري . . ويرى في القسمة الاستبدادية وحكم
الفرد الذي ظل يمارسه محمد علي السلبية الأساسية التي شابت
روعة هذه التجربة الحضارية .

ثم هو يفرق ويميز بين تجربة مصر في عهد محمد علي ، وبين ما أصاب هذه التجربة ، بعده ، على يد خلفائه الذين فرطوا في الميراث الغني الذي خلفه لهم مؤسس هذه التجربة . . . وإن كان لا ينسى أن يذكر للخديو إسماعيل فضله على التعليم والرى والإنشاءات ، وإنجازاته الشورية والدستورية ، وهو الفضل والإنجازات التي غطاها التبذير وما جره على مصر من ديون خلقت التكاة للأجنبي كي يطمع في احتلال البلاد .

كما استورد قاسم أمين ، في تقييمه تجربة مصر الحديثة ، إلى الحديث عن الثورة العربية (١٨٨١ - ١٨٨٢ م) ، فرأها - وهو الإصلاحى الرافض للثورة كتطبيق للتغيير - خطأ دفع إليه تعجل الأمة تحقيق الإصلاح لطول عهدها بالظلم والاستبداد^(١) .

إنه ليكفى في الدلالة على الموقف الإيجابى ، لقاسم أمين ، في تقييم فترة تأسيس مصر الحديثة هذه أنه قد حكم بالإدانة على كل فترات تاريخها ما بين عصر ازدهارها زمن الحكم العربى الزاهر ، وهذا العصر الذى قام فيه حكم محمد على . . . وهو فى كل ذلك يقول :

«لقد استغلت مصر بواسطه وحوش ذات وجوه ادمية من كل البلاد ومن كل الأنواع . . . فى الفترة الحزينة الممتدة بين وضع مصر المتألى تحت حكم العرب وعصر النهضة الذى افتتحه محمد على . . . لقد أخذت السلطة منذ أيام محمد على تصبح أكثر انتظاماً

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٧٣ ، ٢٧٤ .

واعتمدت أولاً، ففتحت المدارس، وانتظم التجنيد في الجيش، وأنشئت الأساطيل، وفتحت حياة جديدة أمام التجارة والصناعة والزراعة، وأخذت تتطور جميعاً، وحفرت القنوات، وعبدت الطرق، وفي كلمة واحدة: أقيمت حكومة حقيقية.

صحيح أن بعض أعمال العنف والابتزاز كانت ترتكب من أن لآخر، غير أن الناس كانوا سرّياً المغفرة لمحمد علي، وكانت الإنجازات الطيبة التي يحققها والتي يريد تحقيقها تغفر له هفواته الصغيرة، وكان ينظر إليه كوالد شديد القسوة، لا يدرك الفارق بين التأديب وإساءة المعاملة!

وخلال حكمه الطويل تهيأ المصريون لدراسة العلوم والفنون وحكم أنفسهم بأنفسهم وكانت التجربة في صالحهم ولخيرهم. وقد أدهشوا العالم الذي ذهل وهو يراهم يحاربون بشجاعة ويتصرفون^(١).

«إن مصر قد أيقظتها - بعنف - من نعاسها الثقيل رجل عظيم منذ نصف قرن، وأذاقها رحيق العلوم، فأخذت تتمثله في نشوة، ومن يومها وهي مقبلة على التعليم، وقد أخذت تلمح مستقبلها المشرق. وهي تتجه إليه في خطى وثيدة، ولكنها ثابتة ودءوبة...»^(٢).



(١) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٧٣

(٢) المصدر السابق، ج ١، ص ٣٣٨

هكذا امتلأت مشاعر قاسم أمين بالحب لمصر ، وطنه الوحيد .
وهكذا كان تقييمه للفترة التاريخية التي نشأ فيها «الوطن» المصري
و«الوطنية» المصرية بمعناها الحديث . . . ولعل في نصوصه
الواضحة والخاسمة التي قدمناها هنا ما ينفي أية شبهات يحاول
البعض إلقاءها على هذا الجانب من تفكيره .

فى الوطنية

[إن التمدن الأوروبي يطأ بقدمه جميع
أنحاء المسكونة، ويستولى على منابع الثروة
فيها، بقوة العقل أو بالعنف.. وإذا صادف أمة
متوحشة أبادها أو أجلاها عن ديارها.. وإذا
صادف أمة كامتنا، لها نوع من المدنية ودين
وشرائع وأخلاق، غاسلها بالمعروف.. لكن لا
يمضى زمن طويل حتى ترى هؤلاء الضاميين قد
وضموا أيديهم على أهم أسباب الثروة.. ولا
سبيل أمامنا للتجاء إلا أن نستعد لهذا القتال..
مستجمعين من القوة ما يساوى القوة التي
تهاجمها.

إن أمام مصر عقبة رهيبة هي أوروبا.. لقد
حاربناها طويلاً من أجل استعادة مكاننا في
العالم...].

قاسم أمين

كان قاسم أمين واحداً من أبناء المدرسة السياسية التي تكومت من حول الإمام محمد عبده . . . يؤمن أبناؤها «بالإصلاح» طريقاً للتقدم والتطور، ويرفضون «الثورة» و«الصفوة» و«النخبة المختارة» وليس على «العامية» والجماهير . . . وهذه «الصفوة» عندهم معيارها «الاستنارة الفكرية»، وليس الوضع الطبقي والثروة المادية والجاه الموروث .

وفي ظل الاحتلال البريطاني لمصر، كانت هذه المدرسة تتعامل مع سلطاته كأمر واقع لا بد من يريد «الإصلاح» أن يتعامل معها ويدخل وإياها في علاقات . . . وبسبب من منهج «الإصلاح» التدريجي الذي اتبعته هذه المدرسة فإنها لم تطرح قضية «الخلاء الفوري» للمحتل عن البلاد كشعار لها، لأنها كانت تؤمن بأن «الصفوة» التي لا بد منها لتسلم السلطة من المحتل لم تتكون بعد، ومن ثم كانت ترى أن «الخلاء الفوري» - حتى مع افتراض تحقيقه - سينقل السلطة الكاملة إلى الخديو - وهم يناوئون حكمه وأسرته إلى حد ما - أو إلى الدولة العثمانية، وهم ضد عودة سلطانها إلى مصر، لأنهم يؤمنون بالوطنية المصرية والذاتية المصرية المستقلة، وبعضهم يؤمن «بالقومية» المصرية بالمعنى العصري والحديث .

ومن هنا مثلت هذه المدرسة، في السياسة، تياراً معتدلاً . .

تهادن مع الاحتلال وتعامل معه ، على أمل الاستفادة من الوسائل الحديثة والإصلاحات العصرية التي أراد المحتل ، بتطبيقها ، تحقيق مصالحة ، على أمل الاستفادة من هذه الوسائل والإصلاحات في تكوين هذه «الصفوة» المستتيرة ، ومناوأة التيار الفكري المتخلف والمتمسك بفكرية العصور «المملوكية - العثمانية» في فهم الأدب والدين وتفسير ظواهر الحياة ،

أي أن هذه المدرسة السياسية المعتدلة قد تميزت عن التيار الوطني الداعي إلى «الخلاء الفوري» وهو تيار مصطفى كامل (١٨٧٤ - ١٩٠٨ م) والحزب الوطني . . وهو الذي كان أكثر شعبية وأقرب إلى «الثورية» ، وأصدق في التعبير عن الموقف الوطني السليم . . كما تميزت كذلك عن فئة المستسلمين للاحتلال ، واليائسين من حصول مصر على الاستقلال ، والمرتبطين بقوات الغزو وجهازه ارتباط التبعية والعمالة .

كان قاسم أمين واحداً من أبناء هذه المدرسة السياسية المعتدلة . . وإن لم تكن السياسة ، بمعناها الشائع ، شغله الأول والأهم .

وهو يحدد بنفسه أنه من فئة «المعتدلين» عند حديثه عن ضرورة قيام مجلس تشريعي نيابي حقيقي ، فيقول : لقد «باتت كثرة من المصريين المعتدلين ، وأنا واحد منهم» تطلب قيام هذا المجلس ، ثم يضع تحفظ هذه المدرسة المعتدلة ، فيقول : «غير أننا نود ، بالطبع ، نظاماً فيه الغلبة للمعرفة الواعية ، لا للكم العددي»^(١) .

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٤٥ ، ٣٤٦ .

ولقد فرض هذا «الاعتدال» على هذه المدرسة أن ترفض أسلوب «الإثارة الثورية» الذي استخدمه مصطفى كامل في بعث الروح الوطنية وإذكاتها في نفوس المصريين . . فكان محمد عبده يصف خطاب مصطفى كامل بأنها «نريات صرع» . . كما نجد امتعاض قاسم أمين من كثرة الحديث عن «الوطنية»، ودخوله في كل شيء في البلاد، على حين أن ذلك - من وجهة نظره - ليس ضروريا لإثبات حبا للوطن الأم، كما لم يكن ضروريا لإثبات حب الوطن عند الآباء والأجداد . . «فمنذا الذي ينكر على المصريين تقدمهم في الإحساس الوطني؟ عاش أبائونا، وتعلموا، واشتغلوا بالصناعة والتجارة، وخدموا أمتهم، وفتحوا البلاد وحاربوا الأمم، ولم نسمع عنهم أنهم كانوا يحبون وطنهم ويهتمون بخصومهم بالخيانة. أما الآن فأبما قرأت وفي أي مكان وجدت لا أسمع إلا: حب الوطن، والغيرة الوطنية، والتفاني في خدمة الوطن، والجريدة الوطنية، والمدرسة الوطنية وحزب الوطن، والبيوت التجارية والمحال الصناعية والصيدليات وعيادات المرضى التي تشغل وتبيع وتربح لخدمة الوطن، صار حب الوطن دينا جديدا، من اعتنقه ربح ومن بعد عنه خسر، صار كعصارة الطماطم يوضع في كل شيء ليكسبه ذوقا حامضا يجعل تناوله سهلا مقبولا» (١).

ونحن نود أن ننبه إلى أن «خطأ» هذا الموقف «المعتدل» في السياسة وفي الوطنية، يجب ألا يختلط «بالخيانة» و«العمالة»

(١) المصدر السابق، ج ١ ص ١٧٣، ١٧٤.

للاستعمار، كما يحلو للبعض أن يحكم على مصلحي هذه المدرسة الفكرية التي انتمى إليها قاسم أمين . . . فهناك من الأدلة على «زيف» هذا الاتهام الكثير والكثير^(١).

وإذا كانت هذه الصفحات ليست بالمكان المناسب لتفصيل الموقف السياسي والوطني لهذه المدرسة، فإننا نهتم بأن نشير هنا إلى موقف قاسم أمين من الصراع الذي شهده عصره بين مصر وبين الاستعمار.

نقد أدرك قاسم أمين، على نحو جيد، أن بين مصر وبين أوروبا صراعاً حضارياً، ومن ثم وطنياً، يضرب بجذوره في أعماق التاريخ، وحدد على نحو واضح وحاسم، أن العقبة أمام تطور مصر، وبلوغها المكان الطبيعي الذي تأهلت له، هي أوروبا!!

« . . . إن أمام مصر عقبة رهيبة هي : أوروبا! »

نقد أخذ تأثير أوروبا يتزايد في مصر منذ عهد سعيد (١٨٥٤ - ١٨٦٣ م) حتى أصبح له في عصر إسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩ م) سيطرة حقيقية علينا، إذ باتت كل أفعالنا وفتاتنا خاضعة للأوامر الصادرة من عجائس وزراء باريس ولندن وبرلين، وأصبح وزيرنا يميلون مرة إلى اليمين، ومرة إلى اليسار، خاضعين دائماً

(١) انظر الفصل الذي كتبه في التقديم «للأعمال الكاملة للإمام محمد عبد» تحت عنوان «الإصلاح . . . والثورة . . . فالإصلاح». ج ١ ص ٣٣ - ١٠٠، طبعة بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، سنة ١٩٧٢.

لأوروبا ، إن أوروبا استخدمت دائماً هذه السيطرة ضد مصر ،
ولقد أن الأوان لتدرك أوروبا أن المصريين قد عاشوا ولا يزالون
يعانون بسببها ، وأن العدالة تفرض عليها واجب إصلاح ما
أفسدته . . وفي انتظار الوقت الذي تعترف فيه بخطأ سياستها
الماضية . . أسجل : أن أوروبا كانت العقبة الوحيدة الكبرى التي
كنا نحاربها من أجل استعادة مكاننا في العالم (١)

هذا عن أوروبا ، بشكل إجمالي وعام ، أما إنجلترا التي
أصبحت المحتل الذي انفرد باستعمار مصر ، فإن قاسم أمين يقف
منها موقف «الناصح» لها بأن تأخذ بيد مصر ، وفاء «بالواجب»
عليها ، ويعلق عليها «الآمال» في أن تساعد في تطور مصر إلى
الأمم ، ويشن على ما تحقق في ظل احتلالها من «تقدم» في عدد
من الميادين . . ولكنه يستنفر قومه إلى النهوض ، محذراً إياهم من
ترك بلادهم تنفرد بها فئات الاستغلال والاستنزاف والنهب
الاستعماري ، فهو «يأمل» في الإنجليز ، ولكنه يطلب «المشاركة» ،
ويحدد أن قانون «البقاء للأقوى والأصلح» هو الحكم في هذا
الصراع بين المصريين وبين الاستعمار !

فهو يطلب «أن تحمل إنجلترا مسئولية مستقبل مصر ، ما دامت
تمسك مصيرها بين يديها» ويأمل ألا يسمح «إخلاص إنجلترا»
بعودة «الفساد الدكتاتوري» مرة أخرى إلى البلاد ، ويرى أن مصر
«قد بدأت تنظم بالفعل في طريق الحضارة» (٢) ، وأنه قد أصبحت

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٣٩ ، ٣٤١ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٣٤ ، ٢٤٤ .

لديها «حكومة أمينة ومهينة وذات مشاعر أبوية»^(١) وأن مصر قد دخلت «عصر النظام والحرية»^(٢) . . ويحدد أن كل هذه الإنجازات إنما هي من فعل الإنجليز ، وأن الكثير منها قد تم في وجه معارضة التيار المحافظ والجامد المناصر للتقدم ، «فكل ما وجد في مصر من الحرية والنظام والعدل ، لم يوجد ولم يستمر إلا بعمل الأجنبي» وعلى رغم أهلها»^(٣) .

ولكنه لا ينسى أن «يتحفظ» بعض التحفظ على ذلك الإسراف الذي بنجلى في تقسيمه لدور الاستعمار في مصر ، وهو الإسراف الذي يجافي الحقيقة ، أو يعرض جانباً واحداً من جوانبها ، فيتساءل قائلاً : لكن ، «هل يعنى هذا أن لدينا حكومة كاملة ، وأن كل شيء على أحسن ما يرام»؟ - (ونبه إلى أن الإجابة بنعم كانت موقف الفئة العميلة والمستسلمة) - ثم يجيب : «... الحق ، أن لا . . فلا يزال أمامنا عمل كبير ، ولا يزال علينا أن نعيد تنظيم إدارة الأقاليم التي بقيت مأوى لعقلية النظام القديم . . إننى أعلن حكومتى أيضاً ، بالحاجة إلى تمثيل وطنى حقيقى ، وإن يكن فى صورة مبسطة»^(٤) .

وبالطبع ، فنحن نؤمن بأن هذا الموقف «الوطنى المعتدل» لم يكن هو أصح المواقف ولا أجداها فى ذلك التاريخ . . ولكننا لا

(١) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٧٤

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٥٥

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٨٠

(٤) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٧٤

نود أن نظلم قاسم أمين إذا تركنا القارئ يتصور أن آماله في التقدم
بمصر قد كانت معقودة فقط على إصلاحات الإنجليز في إدارتها
ومرافقتها، فلقد كانت آمال الرجل معلقة أيضاً، بل وبالدرجة
الأولى، على نهضة المصريين لدخول حلبة الصراع ضد الأجانب
وانتزاع مواقعهم في بلادهم بجدارة، والاستنبال في سبيل الفوز
في هذا الصراع، الذي حذرهم مغية الإخفاق فيه. . إنه يحدد
جانبى الصورة كما رآها يومئذ، إيجابياتها التي دخلت إلى الواقع
المصرى، والمخاطر المحدقة بأبناء البلاد وثرواتها ومصيرها. .
فيقول:

«إننى لا أجد فى ماضئها - مصر - عسراً انتشرت فيه
المعارف، وظهر فيه الشعور بالروابط الوطنية، وأنبث الأمن
والنظام فى أنحاء البلاد، وتهيأت الأسباب للتقدم، مثل العصر
الذى نعيش فيه الآن.

«ولكنها، من جهة أخرى، لم يمر عليها زمن صارت فيه حياتها
معرضة للخطر مثل ما هى فى هذا الزمن، فإن تمدن الأم الغربية
يتقدم بسرعة البخار والكهرباء، حتى فاض من منبعه إلى جميع
أنحاء المسكونة. . وكلما دخل فى مكان استولى على منابع الثروة
فيه، من زراعة وصناعة وتجارة. . وإن أضرب بجميع من حوله من
سكان البقاع الأصليين، فإنه إنما يسعى إلى السعادة. . يطلبها أنى
وجدتها، وبأى طريقة يرى النجاح فيها، وهو فى الغالب يستعمل
قوة عقله، فإذا دعت الحال إلى العنف واستعمال القوة لجأ
إليهما. . وهو لا يطلب الفخار والمجد. . بل المنفعة. . وتحصيل

الشروة من بلاد تحتوى على كنوز لا يعرف أهلها قيمتها وطرق الانتفاع بها . فإن صادفوا أمة متوحشة أبادوا أهلها وأهلكوهم ، أو أجلوهم عن أرضهم ، كما حصل في أمريكا وأستراليا ، وكما هو حاصل الآن في إفريقيا . وإن صادفوا أمة كائنا ، دخل فيها نوع من المدنية من قبل ، ولها ماض ودين وشرائع وأخلاق وعوائد وشيء من النظمات الابتدائية ، خالطوا أهلها وتعاملوا معهم وعاشروهم بالمعروف ، ولكن لا يمضى زمن طويل إلا وترى هؤلاء القادحين قد وضعوا أيديهم على أهم أسباب الشروة وكلما تقدموا في البلاد تأخر ساكنوها . هذا ما سماه « داروين » : قانون التزاحم في الحياة . . . فلا سبيل للنجاة من الاضمحلال والفناء إلا طريق واحدة لا مندوحة عنها ، وهي أن تستعد الأمة لهذا القتال ! وتأخذ له أهبتها ، وتستجمع من القوة ما يساوى القوة التى تهاجمها من أى نوع كانت » (١) .

فهو موقف « وطني معتدل » ، إذ يبالغ فى تقييم إنجازات الاستعمار الإنجليزي فى مصر ، أو على الأقل يسلط الضوء أكثر من اللازم على بعض القسومات ، لا كل القسومات . . . ولكنه يستفز أمة « المقتال » دون ثرواتها وكنوزها التى هى الهدف الأول والأساسى فى هذا الصراع الضارى والتاريخى بينها وبين الأوربيين .

وهو لذلك ، أيضا ، يدعو إلى جعل « الإحساس الوطنى » أحد

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٦٩ ، ٧٠ .

أسس ثلاثة لا بد أن يقوم عليها نظام «التربية» عندنا . . . ومعه :
الأساس الدينى . . . والوازع النفسى وتنمية الضمير^(١) .



وهناك حقيقة أخرى ، وأخيرة ، فى «الموقف الوطنى» لنقاسم
أمين ، تتعلق «بتطور» موقفه هذا فى سنوات حياته الأخيرة . .
ذلك أنه ، مع آخرين من أبناء تلك المدرسة المعتدلة ، قد شعروا بأن
الاستعمار يستفيد من موقفهم هذا أكثر مما يتيح لهم ولآمالهم
وأهدافهم الاستفادة من أسلوبه العصرى وبرامجه فى
الإصلاح . . . كما شعروا بأن عدداً من إصلاحاته التى كانوا قد
استبشروا بها خيراً قد عادت وتعود نتائجها الإيجابية للاستعمار ،
ولم يبق منها للوطن سوى جوانبها السلبية : فديون الأجانب
ونفقات قوات الاحتلال وطمع ثروات التجار والمغامرين
والمستثمرين الأوربيين قد التهمت أغلب عوائد إصلاحات الرى
والزراعة والرواج التجارى فى البلاد . . . ولم يبق لأبناء الوطن
إلا الفتات . . . وخلق فئة من الموظفين تخدم جهاز الدولة الجديد ،
أصبح هو العائد الأساسى والثمرة المؤكدة لبرامج التعليم . . . ولم
تحدث إضافة حقيقية لمعارف الأمة وقدرات أبنائها العقلية . . بل
لقد عاد الإمام محمد عبده ، فى مرضه الأخير ، فاشئ على نظام
التعليم الذى أقامه محمد على ، وفضله على إصلاحات الإنجليز
التعليمية بعد أن كان قد علق عليها الآمال^(٢) .

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢١٥ ، ٢١٧ .

(٢) «الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده» ، دراسة وتحقيق الدكتور محمد عبادة ،

ج ١ ص ١٦٤ ، ١٦٥ ، وج ٣ ص ١٧٠ ، ١٧٢ .

وهذا التطور الذي نقول إنه قد حدث في "الموقف الوطني" لقاسم أمين، يتجلى لنا إذا نحن تذكرنا حديثه الذي سبق وأوردناه، والذي انتقد فيه النمط الذي سلكه مصطفى كامل في الدعوة إلى الوطنية. ثم قارناه بالعبارات الرائعة والعسيفة التي سطرها في مذكراته عندما شيعت مصر جثمان الزعيم العظيم مصطفى كامل في ١١ فبراير سنة ١٩٠٨. . . وهي العبارات التي يقول فيها قاسم أمين :

"١١ فبراير سنة ١٩٠٨ م. . . يوم الاحتفال بجنازة مصطفى كامل، هي المرة الثانية التي رأيت فيها قلب مصر يخفق. . . المرة الأولى كانت يوم تنفيذ حكم "دنشواي"، لقد اتخذ يومها شعور الناس. . . ولكنه بقي مكتوماً في النفوس. . . أما يوم الاحتفال بجنازة صاحب "اللواء" فقد ظهر ذلك ساطعاً في قوة جملته، وانفجر بفرقة هائلة سمع دويها في العاصمة، ووصل صدى دويها إلى جميع أنحاء القطر.

هذا الإحساس الجديد، هذا المولود الحديث، الذي خرج من أحشاء الأمة، من دمها وأعصابها، هو الأمل الذي يتسم في وجوهنا البائسة، هو الشعاع الذي يرسل حرارته إلى قلوبنا الجامدة الباردة، هو المستقبل!"^(١).

فنحن هنا نشعر أن قاسم أمين يبايع مصطفى كامل ومذهبه في الوطنية ومسلكه في البعث الوطني، وهو هنا يحیی هذا

(١) الأعمال الكاملة لقاسم أمين، ج ١ ص ١٨٣.

«الانفجار» الوطني الهائل الذي جاء يبعث الدفء والحرارة في
«القلوب الجليدة الباردة» التي نأت عن مواقع الوطنية الشائرة
ولهيب حرارة الحركة الوطنية الجديدة.

وكما كانت خيبة الأمل في إصلاحات المستعمر شديداً في ذلك
التطور . . فلقد كان من أسبايه . كما نعتقد . تغاظم التيار الوطني
الذي قاده مصطفى كامل والحزب الوطني . . وأيضاً إخلاص هذا
النفير من أبناء مدرسة الاعتدال الوطني لقضية بلادهم . . ذلك
الإخلاص الذي دفعهم لتطوير مواقفهم وتعديل مشاعرهم عندما
لم يحقق لهم «الاعتدال» ما أملوه لخير الوطن وتحريره من
الاستعمار .

أعماله الفكرية

الأعمال الكاملة لقاسم أمين : التي جمعناها وحققناها وقدمنا لها بدراسة مستفيضة والتي قدمناها لقراء العربية ، سنة ١٩٧٦ م ، هي حلقة في تلك السلسلة التي بدأنا إخراجها منذ سنة ١٩٦٨ م . سلسلة «الأعمال الكاملة» لأعلام عصر اليقظة العربية والبحث الحضاري الحديث لأمتنا العربية وفكرنا الإسلامي المستنير .

وفي هذه السلسلة ، صدرت :

١ - الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني : ونحن نستكمل الآن طبعتها الثانية ، كي تتضمن تلك النصوص التي اكتشفناها بعد صدور الطبعة الأولى ، وفي مقدمتها تلك النصوص التي كانت منسوبة ، خطأ ، للإمام محمد عبده . . وهي نصوص ستجعل طبعتها الجديدة تأتي في أربع مجلدات . بعد أن كانت طبعتها الأولى في مجلد واحد .

٢ - الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي : ولقد صدرت طبعتها الثانية . حاوية نصوصاً ووثائق لم تنشر للكواكبي من قبل ، وحاوية كذلك التعديلات والإضافات التي أدخلها على كتابه «طباع الاستبداد ومضارغ الاستعباد» قبل وفاته . ونعجل الآن

لإخراج طبعتها الثالثة حاوية مقالاته التي كانت مفقودة، والتي نشرت بالصحف التي أصدرها بشبابه في حلب.

٣- الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده: ولقد اكتمل صدورها بظهور جزئها السادس والأخير... ونفذت طبعتها الأولى والثانية. ويعاد الآن طبعها مع زيادات وتنقيحات.

٤- الأعمال الكاملة لسفاعة الطهطاوى: وصدورها يقترب الآن من الاكتمال، فلم يبق منها سوى الجزء الأخير، وفيه الفهارس وبعض المتفرقات.

٥- الأعمال الكاملة لعلى مبارك: ولقد صدرت المجلدات الثلاث الأولى.

فأعمال فاسم أمين، إذا، هي حلقة في هذه السلسلة، التي نرجو لها النمو كي تضع بين يدي مفكرينا وباحثينا وقرائنا الثمرات العقلية الفذة والبارزة التي صنعت عصر نهضتنا الحديث، والتي لا تزال فاعلة، ومؤثرة في حركتنا الفكرية حتى الآن... وهو إنجاز نعلق على استمراره واكتماله أهمية كبرى. لشدة حاجة حركتنا الفكرية إليه، وحتى لا نكون بدعاً بين الأمم المتحضرة والناهضة صاحبة التراث، حيث تهتم معظمها بجمع آثار مفكريها الكبار، وتحقيقها والتقديم لها، وتغيب من دائرة اهتمامنا هذه المهمة الأساسية، رغم غناها الفكرى وشدة حاجتنا إلى وصل خيوط تطورنا الثقافى وتاصيل القيم الفكرية المشرقة فى واقعنا الثقافى الذى نعيش فيه.



وإذا كان لا بد من كلمات عن النصوص التي تكون «الأعمال
الكاملة لقاسم أمين» فإننا نقول : إن مفردات نصوص هذه
الأعمال هي :

١ - كلمات : وهي الخواطر واللمحات التي كتبها قاسم أمين في
«مفكرته الخاصة» ، والتي كانت بمثابة «مذكرات نفسية
خاصة» . . كتبها لنفسه ، وأودعها خلاصة مكررة لمجموعة من
أفكاره ، صاغها في أسلوب جاء غاية في الرشاقة والجمال ،

وكان قاسم أمين قد قرأ صفحات من هذه الـ «كلمات» لصديقه
أحمد لطفى السيد باشا (١٨٧٢ - ١٩٦٣ م) فلما توفي قاسم سعى
لطفى السيد إلى الأسرة ، بواسطة سعد زغلول باشا (١٨٦٠ -
١٩٢٧ م) حتى حصل عليها ، وقام بمراجعتها مع محمد عاطف
بركات (١٨٦١ - ١٩٢٤ م) ثم نشرتها جريدة لطفى السيد
«الجريدة» سنة ١٩٠٨ م .



٢ - أسباب ونتائج : وهي خمس عشرة مقالة نشرها قاسم أمين ،
دون توقيع ، في صحيفة الشيخ على يوسف «المؤيد» ما بين
سنة ١٨٩٥ م وسنة ١٨٩٨ م . . مقدمة وأربع عشرة مقالة ،
عالج فيها عدداً من القضايا الاقتصادية والاجتماعية والتربوية
التي تهم دعاة الإصلاح .



٣ - أخلاق ومواعظ : وهي مثل «أسباب ونتائج» ، مقالات خمسة

كتبها في «المؤيد» في نفس الفترة الزمنية (١٨٩٥ - ١٨٩٨ م) دون توقيع، وقصرها على علاج مشاكل «الموظف والوظيفة» و«التوظيف» في عصر كان التسابق فيه على العمل «الميرى» ظاهرة سلبية تحول بين خيرة الشباب وبين العمل المنتج، وتنسى في هذا الشباب أخلاقيات التواكل والارتزاق.



٤ - المصريون.. رد على داركور : وهو الكتاب الذي أصدره بالفرنسية قاسم أمين سنة ١٨٩٤ م، رداً على الكاتب الفرنسي «دوق داركور» الذي أصدر كتاباً عن مصر والمصريين سنة ١٨٩٣ م، امتلاً بالتهجم عليهم وحاول فيه الطعن على الإسلام والمسلمين.

ولقد قال قاسم أمين عن ملايسات كتابته لهذا الرد : «إنني حين قرأت كتاب دوق داركور مرضت عشرة أيام، وقد قلت ذلك لجميع أصدقائي، قبل أن يرد علي خاطري فكرة الرد عليه. لقد وجدته بالغ الفسوة، وأحزنتني أنه حاول انتزاع جميع أمالي، غير أنني أخذت أسترده دوني شيئاً فشيئاً، وبعدها شرعت أطيل التفكير في كل ما كتبه عنا، وتأملت جميع المشاكل التي وضعها وحلها، وخلعت غنى صفتي المزدوجة، كمصري مسلم، لأحلل الموقف في حباد تام ودون انفعال أو تحيز، ولم أسترشد بغير الرغبة في معرفة الحقيقة، حتى أستطيع أن أعبر هنا عن عواطفى كما يفعل أجنبي يعرف عن مصر كل ما أعرف، ويقيمها بطريقة محايدة».

ولقد ظل هذا الكتاب الذي يمثل قسمة متميزة في فكر قاسم

أمين ومرحلة في تطوره الفكري حيال بعض القضايا الهامة ، ظل بعيداً عن اللغة العربية ، حيس أصله الفرنسي ، حتى تقدينا له في أعماله الكاملة .

ولقد كان ذلك سبباً من أسباب مجيء أغلب الدراسات التي كتبت عن قاسم أمين غير وافية برسم ملامحه الفكرية المتكاملة ، وبعيدة عن إدراك تطوره الفكري . . وهما الأمران اللذان تحققهما ، ضمن ما تحقق ، الدراسة التي قدمناها عنه هنا .

أما إنجاز ترجمة هذا الكتاب فهو للصديق الأستاذ محمد البخاري . . ولنا فيه التحقيقات والتعليقات والترجمة الموجزة لما ذكر في نصه من أسماء الأعلام .



٥ - تحرير المرأة : وهو أكثر كتب قاسم أمين شهرة وذيو عاً . . بل أشهر كتاب عربي صدر في عصره . . صدر سنة ١٨٩٩ م . فأثار أول معركة فكرية كبرى . سببها كتاب منذ مطلع عصر نهضتنا في بداية القرن الماضي .

ولقد سبق لنا أن عرضنا ، ونحن نقدم لأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ، إلى أن للأستاذ الإمام دوراً في تأليف هذا الكتاب ، وقدمنا في ذلك المقام أدلتنا على أن رأي الشرع الإسلامي في قضايا : الحجاب ، والزواج ، والطلاق ، وتعدد الزوجات ، الذي تضمنه «تحرير المرأة» هو للأستاذ الإمام .



٦ - المرأة الجديدة : وهو الكتاب الذي أصدره قاسم أمين سنة ١٩٠٠ م ، وركز فيه جهده للرد على الاعتراضات التي قدمت في الكتب والرسائل والصحف والمجلات والمنتديات ، ضد كتابه "تحرير المرأة" . . . كما ضمنه تطوراً أكثر جرأة في عدد من القضايا التي تناولها في "تحرير المرأة" في تواضع أو على استحياء .



٧ - إنشاء الجامعة : وهي كلمة لقاسم أمين خطبها في اجتماع من الاجتماعات التي عقدت سنة ١٩٠٨ م للتحضير لإنشاء الجامعة المصرية . . . عرض فيها لأهمية التعليم الجامعي ودوره في خلق العلماء والمفكرين والمتخصصين .

٨ - الإمام محمد عبده : "أخلاقه وفضائله وإمامته" . . . وهو خطاب قاسم أمين الذي ألقاه في ٢٠ أغسطس سنة ١٩٠٥ م باجتماع تأييد الأستاذ الإمام ، في ذكرى مرور أربعين يوماً على وفاته ، وفيه عرض لمكانة الإمام ، ودوره في الفكر العربي الإسلامي ، والمدرسة الفكرية التي تكونت من حوله .

تلك هي مفردات الأعمال الكاملة لقاسم أمين . . . وهي الأعمال التي جمعناها ، وحققناها ، وقدمنا بين يديها بدراسة مستفيضة عن حياته ، وفكره ، ومكانته من حركتنا الفكرية في عصر نهضتنا الحديث . . . ولقد صدرت طبعاتها الأولى عن (المؤسسة العربية للدراسات والنشر) بيروت سنة ١٩٧٦ م . . . وهو جهد نرجو أن يكون قد حالفنا فيه توفيق وإلهام التوفيق .

كلمات

[دونها قاسم أمين في مفكرته الخاصة.
لجاءت آية من آيات الخواطر الصادقة مع
النفس..]

وعودجاً راقياً للمذكرات التي يوحىها
القلب وتسكيها العاطفة..

وصورة من صور الشاعرية التي سطرها
قلمه الرشيق...].

* الحرية ^(١) *

الحرية الحقيقية تحتمل إبداء كل رأى، ونشر كل مذهب،
وترويج كل فكر.

* * *

* لا يغرنك المرتقى السهل إذا كان المنحدر وعراً،
* إن الذى مدحك بما ليس فيك إنما هو مخاطب غيرك،
* رب كلمة يتجرعها حلیم مخافة ما هو شر منها،

* * *

* إذا استشارك عدوك فاخلص له النصيحة، لأنه بأبشارك
قد خرج من عداوتك ودخل فى مودتك.

* * *

* فى مصر: كل من يعرف القراءة والكتابة يسمى فاضلاً، فإذا
درس شيئاً من العلم صار عالماً مفضلاً، فإذا امتاز ببعض
الحذق أو إظهاره عد من النوابغ.

(١) العناوين الفرعية التى وضعت لفقرات هذه «الكلمات» من إنشائنا نحن وليس
من وضع قاسم أمين.

* الإيمان

ليس الإيمان مسألة عقلية أو علمية ، فإنا نرى بين العلماء من يصدق كما نرى بين الجهلاء من يكذب ، وإنما الإيمان مسألة شعور صرف ، شعور يجعل صاحبه يرى نفسه محتاجاً إليه إلى حد أنه يستحيل عليه أن يعيش بدونه .



* بين العلم والدين

تعصب أهل الدين ، وغرور أهل العلم ، هما منشأ الخلاف الظاهر بين الدين والعلم ، وليس بصحيح أنه يوجد بينهما خلاف حقيقى ، لا فى الحال ولا فى الاستقبال ، ما دام موضوع العلم هو معرفة الحقائق المؤسسة على الاستقراء ، فمهما كثرت معارف الإنسان لا تملأ كل فكره ، بعد كل اكتشاف يحققه العلم يبحث عن اكتشاف آخر ، وفى نهاية كل مسألة يحلها تظهر مسألة جديدة تطالبه بحلها . الآن وغدا يشتغل عقل الإنسان بالعلم ، أى بمعرفة الحوادث الثابتة ، ولا يمنعه ذلك من التفكير فى المجهول الذى يحيط بها من كل طرف ، هذا المجهول الذى كان ويكون بعد الذى لا قرار له ولا حد لا فى الزمان ولا فى المكان هو دائرة اختصاص الدين .

* العشق

لا شىء يشبه العشق فى عنفوان نشأته ، إذا هجم هذا المستبد

القاهر ارتعدت له الفرائص وحضر اللسان واختبل العقل وحرلا الطريق أمامه ، فوصل إلى القلب بوثة واحدة أو بوثبات متعددة ، ومتى احتله تمدد فيه وانتشر وملاه برمته ، فلا يقبل منافسا أو منازعا أو شريكا أو ضيفا بجانبه ، بل يستأثر وحده بالنفس فيلهيها عن شواغلها وينسيها حاجاتها ، ويفرق بينها وبين أميالها ، ويذهب همومها وأحزانها ، ولا يطمئن إلا إذا قطعت العلاقات مع غيره ، وأصبحت كلها له . كأنها ولدت معه في يوم واحد ، وتغنى معه في ساعة واحدة ، لا تعرف ماضيها ولا تبالى بمستقبلها ، فإذا تمكن منها على هذه الحال وقبض على زمامها رضيت بعجزها ، وشكرته على أسرها ، واغتبطت برقيها ، ووجدت باتصالها بنفس أخرى قوة وفرحا وسعادة لم تر مثلها .

العاشق عنده ما يكفيه : سماؤه صافية مهما تراكمت عليها السحب ، ومائدته فاخرة وإن لم يكن عليها غير الخبز والملح ، تتنابه الحوادث ولا تترك به أثرا ، لأنه لا يعاب بها ، سارة أو ضارة ، ويقاوم الحياة بجرأة عجيبة ؛ لأنه يشعر بأن في جسمه روحين وفي صدره قلبين .

إن كان في الوجود إنسان يستحق أن يحسد على نعمته فهو العاشق .

كل عشق شريف . فإن كان بين شريقين زاد في قيمتهما ورفع من قدرهما ، وإن كان بين وضيعين أكسبهما شرفا وقبلا ، حتى إذا زال العشق سقطت قيمتهما ، وانحطت مرتبتهما ورجعا إلى أصليهما .



ليس ما يكتب على أبواب الأمكنة دائماً صحيحاً ، فقد يكون بين سكان البيمارستان من هو أعقل من هذا الذي تراه سائراً في الطريق متمتعاً بحريته ، كذلك بيوت المؤسسات قد تغفل أبوابها على نساء ، فيهن من هي أوفر حشمة وأدباً وأكثر بعداً عن الشهوة من كثير من المخلدرات اللائي تتحنن الرءوس أمامهن .

يشعر العاشق بلذة ساحرة إذا كان محبوباً ، وإذا كان عابر محبوب فيجد في ألمه لذة أخرى مشابهة للسكر ، من تنبه في الأعصاب وسرعة في دورة الدم وانفعالات شديدة في النفس ، وبالإجمال من زيادة محسوسة في مبلغ الحياة ، كلاعب القمار يتمتع بإرضاء شهوته في الريح أو في الخسارة .



* من اختبأ في لأرباب الأفكار الذين اختلطت بهم بظهور لي أن الحمية عندهم سطحية لا تذكىها نار لتوقد في القلب حمية ألفاظ ، متى انتشرت عادت هباء لا تترك أثراً بعدها .

* الكاتب

في الكتب والجرائد والمجلات أرى الكاتب يعتمد على التملق لجمهور القراء أكثر من عنايته بإبداء فكره .

ولكن الكاتب المحب لفنه ينشر أفكاره كما هي ، ينشر الحقيقة منزهة عن الزيادة والنقصان لا يقبل أن يبدل فيها أو يغير منها أو يتنازل عن حرف ، مراعاة لأي أمر كان . . هو العاشق الذي يعتقد

الكمال فيما يحبه ولا يتصور وجود شيء يعادله، ولا يبالي بدم
الناس، بل يجد فيه نوعاً من حماسة الغضب، منبهاً لأعضائه،
منشطاً لقواه، مغرياً له على الاستمرار والثبات.



* كلما أردت أن أتخيل السعادة تمثلت أمامي صورة امرأة
حائزة لجمال المرأة وعقل الرجل.



بعد سن الأربعين يبتدئ العاقل يرى أن المطلق ليس له وجود
ذاتي، وأن الثروات الجميلة التي نحبتها ونقدمها كالحخير والحق
والعدل لا يمكن أن توجد في الخارج إلا مختلطة بنقيضاتها.

* الخطيئة

لا بد أن تكون الغاية النهائية للتربية الأدبية هي العفو عن
الخطيئة: العفو عن أكبر خطيئة، العفو عن كل خطيئة.

هل المخطئ مسئول أو غير مسئول؟ وما هي درجة مسئوليته؟
مسألة عظيمة يجب على من يريد الحكم على غيره أن يحلها،
لكن حلها يكاد يكون محالاً، إذ لا يستطيع أحد أن يلم بجميع
العوامل التي تتركب منها الذات الإنسانية بوجهيها: الأدبي،
والمادي، والقليل الذي يعلمه من ذلك يبين أن سلطنة الإرادة
على النفس محدودة وخاضعة لمؤثرات كثيرة شديدة، تتنازعها
وتقارعها وتضعف قوتها على نسبة مجهولة ومقدار لا يصل إلى

تقديره عقلنا، وكل تاريخ الإنسان في الماضي يدل على أنه لم يكن متولداً عن الحيوان المقترس مباشرة، فهو مشابه له في شره وأطماعه وشهوته، خلق عليل النفس كما هو مريض الجسم، خلق على أن تكون صحته الجسمية والعقلية صدفة سعيدة وعارضا مؤقتا.

فالخطيئة هي الشيء المعتاد الذي لا محل للاستغراب منه، هي الحال الطبيعية اللازمة لغريزة الإنسان، هي الميراث الذي تركه آدم وحواء لأولادهما التعساء من يوم أن اقتربا من الشجرة المحرمة وذاقا ثمرتها التي يتخيل لى أنها كانت الذم من كل ما أيسح لهما، من ذلك اليوم البعيد لوثت الخطيئة طبيعتهما، وانتقلت منهما إلى ذريتهما جيلاً بعد جيل، ذلك هو الحمل الثقيل الذي تن تحته أرواحنا الملتهبة شوقاً إلى الفضيلة العاجزة عن الحصول على اليسير منها إلا بمقاساة أصعب المجهودات، حتى هذا النور القليل لا سبيل إلى بلوغه إلا بتمرين طويل، يتخلله حتماً سقوط متكرر في الخطيئة، يكون منه الدرس المفيد لاتقائه في المستقبل.

وأخيراً، فإن العفو هو الوسيلة الوحيدة التي ربما تنفع لإصلاح المذنب، فقلما توجد طبيعة مهما كانت يابسة لا يمكن أن تلين إذا هي عولجت.



* أمر لا تدري متى يغشاك، لا تمنعك ممانع من أن تستعد له
قبل أن يفاجئك.

نحن خلفاء العرب في لغتهم ، فكل ما تختبره ملكاتنا في اللغة يعد غريباً بالطبع .

* * *

لم أر بين جميع من عرفتهم شخصياً الذي يقرأ كل ما يقع تحت نظره من غير حن ، أليس هذا برهاناً كافياً على وجوب إصلاح اللغة العربية ؟!

نى رأى فى الإعراب أذكره هنا بوجه الإجمال ، وهو أن تبقى أواخر الكلمات ساكنة لا تتحرك بأي عامل من العوامل ، بهذه الطريقة ، وهى طريقة جميع اللغات الإفريقية ، واللغة التركية أيضاً ، يمكن حذف قواعد النواصب والجوازم والحال والاشتغال . . الخ ، بدون أن يترتب عليه إخلال باللغة ، إذ تبقى مفرداتها كما هى .

فى اللغات الأخرى يقرأ الإنسان ليفهم ، أما فى اللغة العربية فإنه يفهم ليقرأ ، فإذا أراد أن يقرأ الكلمة المركبة من هذه الأحرف الثلاثة « ع ل م » يمكنه أن يقرأها علم^(١) أو علم^(٢) أو علم^(٣) أو علم^(٤) أو علم^(٥) أو علم^(٦) ولا يستطيع أن يختار واحدة من هذه الطرق إلا بعد أن يفهم معنى الجملة ، فهى التى تعين على النطق الصحيح ، لذلك كانت القراءة عندنا من أصعب الفنون .

(١) بفتح العين وكسر اللام .

(٢) بضم العين وكسر اللام .

(٣) بكسر العين وسكون اللام .

(٤) بفتح العين واللام .

(٥) بفتح العين واللام المشددة .

(٦) بضم العين وكسر اللام المشددة .

كان المؤلفون في القرون الوسطى هم: ابن سينا^(١) وابن رشد^(٢) وابن مسكويه^(٣) وأضرابهم، كانت اللغة العربية لغة الأدب والعلم والفلسفة، لذلك كانت أوسع وأغنى لغات العالم، ثم مرت عليها القرون الطويلة وهي واقفة في مكانها لا تتقدم خطوة إلى الأمام، واللغات الأوروبية أخذت تتحول وترتقي كلما تقدم أهلها في الأدب والعلوم، حتى أصبحت النموذج المطلوب في السهولة والإيضاح والدقة والحركة والرشاقة - صارت أنفس جوهرية في تاج التمدن الحديث.

رغمنا عن هذا قد أجمع قومنا على أن لغتنا لا تزال حتى الآن حافظة مركزها الأول، ويؤمنون أنها سيادة اللغات، كما أجمع عامتنا على أن مصر أم الدنيا.

* الابتكار

الشعراء والكتاب والعلماء عندنا لا يعبرون عن أفكارهم فيما يكتبون، وإنما في عقولهم مخازن تحفظ ما يدخل فيها بالقراءة

(١) أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا (٩٨٠ - ١٠٣٦ م) فيلسوف وطبيب شهير في التراث الإسلامي، لقب بالشيخ الرئيس، وهو صاحب فروع إشراقية في الفلسفة.

(٢) أبو الوليد بن أحمد بن رشد (١١٢٦ - ١١٩٨ م) فيلسوف قرطبي، الشراح الأكبر لأثار أرسطو، وأبرز فلاسفة التيار المشائي المسلمين.

(٣) أبو علي الخازن المشوهي سنة ١٠٣١ م، فيلسوف وأديب ومؤرخ وعالم بالكيمياء، وله في الأخلاق كتاب "تهذيب الأخلاق" وهي التاريخ الحارث بالأمم وغيرهما كثير.

والسماع، ومستودعات لأفكار غيرهم، يتعاملون بهذه البضاعة التي ليست لهم، ولا يضيفون أو يعلقون عليها شيئا من أنفسهم. كل عملهم محصور في تكرار أفكار الغير التي حفظوها كما يحفظ الأطفال القرآن، فإذا سمعهم العامة أو قرأوا كلامهم صفقوا ومدحوا وصاحوا! فلان ما أحلاه! علان ليس في العالم مثله!

* طلب الحقيقة لذاتها

طلب العلم عندنا وسيلة لمزاولة صناعة أو للالتحاق بوظيفة، أي لكسب المال، أما حب الحقيقة والاستغراق في تحصيلها والشوق إلى اكتشاف المجهول ومغالية الصعوبة والاهتمام بترقية النفس، وبالإجمال التعليم للتعلم فلا فائدة فيه، والفائدة كل الفائدة في هذا الذي لا فائدة فيه.

* صحافتنا

إذا قرأت الجرائد تجدها جميعا متحدة في موضوعها متشابهة في تحريرها بحيث لا تكاد تشعر باختلاف بين إحداها والأخرى، وإذا اجتمعت في اليوم بعشرين رجلا من معارفك تسمع من التسعة عشر الآخرين ما سمعته من الأول، ولا تجد في الجريدة التي تقرؤها أو تسمع من صاحب الذي تقابله فكرة غريبة أو تعبيراً جديداً أو أسلوباً مبتدعاً، لا تجد النايغة الذي يدهشك ويجذبك بعجائب جنونه.

* توجد عدة طرق للتعبير عن كل فكرة ، أحسنها طريقة واحدة . . هي التي يجدها الكاتب المجيد .

* حدود الإنسان

عقل الإنسان المحدود لا يسع غير المحدود ، وعلمه القليل لا يصل إلى إدراك المجهول الذي لا نهاية له ، لذلك تراءى متى ترك دائرة معلوماته الحسية دخل في عالم الظلام وسار كالأعمى يتخبط يمينا وشمالا ، لا فرق في ذلك بين الغبي الجاهل والذكي العالم .



المقلد في إيمانه مقنن ، يخمل عقيدته كما تحمل الوردة في عروة الملابس ، والمتكبر مجازف جاوز حد العقل والعلم ، وأبغض منهما من يخادع بدينه فيقول : إن كان الله غير موجود ما خسرت أكثر من غيري وإن كان موجودا ربحت مع الرباحين ، لذلك أومن به ! هذا هو المحتال الذي لا يصاب أحد - حتى الإله - من نصيبه .

* الأخلاق

الفضيلة والرذيلة يتنازعان السلطة على نفس الإنسان في جميع أدوار حياته ، فتارة تخضع للأولى وتارة تغلب عليها الثانية ، ولا يوجد رجل مهما بلغ من التربية والعلم ، يكون آمنا من السقوط يوما في الرذيلة ، كما لا يوجد رجل ، مهما أحاطت به الرذيلة إلا وفيه استعداد لأن يأتي يوما بأفضل الأعمال .

وحقيقة الأمر أن أخلاق الإنسان ليست شيئاً يتم دفعة واحدة،
وليس لها حد تقف عنده، إنما هي في تحليل وتركيب، في تكوين
مستمر، يعثر بها الانحلال زمناً وتعود بعده إلى التماسك.

الإنسان أسير الشهوات ما دام حياً، وإنما تختلف شهواته
باختلاف سنه، فشهوة اللعب عند الطفل، وشهوة الحب عند
الشاب، وشهوة الطمع عند رجل الأربعين، وشهوة السلطة عند
شيخ الستين، جميعها شهوات تعرض صاحبها للشهوات واقتراف
الخطايا، متى وقع فيها أحداً يجب عليه ألا يترك نفسه إلى
تصرفها، ولا يستصعب الخلاص منها، ولا ييأس من نفسه، بل
عليه أن يقاومها كما يقاوم المريض علته، عليه أن يوجه إرادته إلى
مصارعتها والتغلب عليها، عليه أن يحول فكره عن الأمل الذي
كان فيه قبيحاً وينظر إلى غده الذي يكون فيه جميلاً.

لا يطلب الكمال من المرء، وإنما يطلب منه أن يكون في كل يوم
أحسن منه في اليوم الذي مضى.

في ميدان الحرب لا يكون ثبات الجأش إلا عند الرجل الذي
حضر وقائع سابقة ووقف أمام العدو وقاتل يوماً مهاجماً ويوماً
مدافعاً، كذلك الحال في جهاد النفس لا تجد ثبات الجنان إلا عند
الرجل الذي عرض نفسه إلى استهواء الشهوات وخذائع اللذات،
فإذا اختبرها بالتجربة وتغلب عليها بعد ذلك كسب قوة الحكم
على نفسه التي هي الفضيلة الحقيقية، خلافاً للرجل الذي احتجب
عن جواذب الشهوات، فإنه متى وجد أمامه فرص مرغبة فيها لا

يقاوم سلطانها إلا قليلاً، وإذا سلم في نفسه مرة لا يستطيع
الخلاص منها.

✽ بعد سن الأربعين كل زلة خطيرة.

✽ عين الطماع حينما تبصر شيئاً تشتهيهِ، لها نظرة تحيط به
وتحويه بزمته ومحوزة وتفعل في نفسك ما يفعله الاختطاف
الحقيقي. هذه النظرة رأيتها كثيراً عند المعتاد لعب القمار.

✽ يوجد أناس متى رأيتهم أو سمعتهم تشعر بنقص في خلقهم
كأنهم صنعوا بغاية السرعة فلم ينالوا حظهم من الإتيان
المعهود.

✽ لا تكمل أخلاق المرء إلا إذا استوى عنده سدح الناس وذمهم
إياه.

✽ أصحاب النفوس الكبار

زارني أشهر أديب يكتب الآن في مصر باللغة العربية، وكان
في يدي كتاب فرنسوي، يشتمل على حكم ومواعظ موضوعه في
جمل مستقلة لا ارتباط بينها، فقرأ فيه عبارة هذه ترجمتها: "إنني
أخشى ما أتمنى"، فقال: كيف يخشى الإنسان الشيء الذي

يتمناه، فأجبت: كل إنسان يخشى ما يكره، وليس كل إنسان يخشى ما يتمنى، وإثنا هذه صفة يختص بها ذوو النفوس الممتازة، وتكون سبباً لشقائهم، يرى الواحد منهم وردة جميلة في البستان، فيتمنى أن يقطفها، ولكن يعبده عنها ما حولها من الشوك، يشتهي تفاحة جميلة تعجبه بلونها البديع ورائحتها الزكية، ولكنه يخشى الدودة الكبيرة التي ربما تصادف أسنانه وقت أن يعض عليها، فيلقبها على الأرض وهو يشتهيها، يلقى المرأة التي كان يراها في مخيلته مثال الجمال، فيود أن يلقى نفسه تحت أقدامها ويعطيها قلبه وحياته، ولكنه يخشى أن تكون كاذبة كغيرها، يتمنى صديقاً ويخشى أن يجده خائناً. . . يتمنى . . . كل شيء، ويخشى ألا يجد فيه كل ما تخيله. وهكذا يقضي حياته بين الأمل والخوف من تحقيقه، وتنتهي به الحال إلى أن يرى أن السلامة في ترك الأمنى.



* كل مباحثة مفيدة، إذا كان الغرض منها إظهار الحقيقة، ولكنك لا تجد إلا شخصاً يريد أن يعلمك ما ليس له به من علم ولا يصفى إلى شيء مما تقوله؛ لأنه ليس مشغولاً إلا بما يقوله.



* الوحدة

وجدت السامة غالباً في الاجتماعات، وما شعرت بها في الوحدة، أشتاق إلى الناس فإذا اختلطت بهم رأيت وسمعت ما

يزهدين فيهم ، فأفقر منهم وأرجع ملتجئاً إلى نفسه ، فأجد فيها
الراحة والسكون .

* الصديق والعدو

من الذي يحب صاحبه أو قريبه أو موطنه أكثر ؟ أهو الذي
يكشف الستار عن عيوبه ويظهرها له كما هي . . أم الذي يغطي
البصر عن نقائصه ويخفيها عليه ويمدحه ليسره ؟ لا شك أن الأول
هو الصديق المكروه والثاني هو العدو المحبوب .

* الرياء

من الناس من إذا أراد أن يفعل الخير انتبهز الوقت المناسب
لإعلانه ، فإذا رأى شهوداً وضع يده في جيبه وأخرج كبسه وعد
النقود ووضعها ببطء في يد صاحبه بعد أن يراها الحاضرون ،
ولكيلا يبقى عندهم شك في مقدارها يقول لمن تفضل بمساعدته :
خذ هذه الجنيحات العشرة ، فإذا خرج هذا المسكين التفت إلى من
حوله وشرح لهم عواطفه وحنوه واعتياده عمل البر ، ثم كلما
اجتمع في نهاره بواحد من معارفه ، أوجد مناسبة ليقتص عليه خبر
هذا الحادث العظيم . هذا الرجل أراد فعل الخير لنفسه فاستعمل
صاحب الحاجة وسيلة لذلك .

ومنهم من يريد فعل الخير فيقبل على المحتاج ويفتح له قلبه
ويصغي إلى شكواه ويشاركه في ألمه ، ويحزن لحزنه ثم يبدل له من
عبارات التسلية وكنيمات النصيح ما يقوى عزيمته ، فإذا قدم إليه

مساعدة مادية دسها في وسط الكلام والمحاورة وهو مضطرب
خجل خائف أن يجرح إحساساً شريفاً، يحتال في انتخاب طرق
العرض ويعتذر عن عمله ، فإذا قبل منه شعر بفرح كمن يكون وقع
في ورطة ثم تخلص منها . ذلك هو المحسن الذي يعرف أن
للنفس حياة يجب احترامه كما أن في الجسم ما ينبغي غرض النظر
عنه .

فعل الخير حسن وأحسن منه ستره .

* التجارب

أقل مراتب العلم ما تعلمه الإنسان من الكتب والأساتذة ،
وأعظمها ما تعلمه بتجاربه الشخصية في الأشياء والناس .

في الأمة الضعيفة المستعبدة حرق النفي (لا) قليل الاستعمال .

* العقوبة في التربية

من مبرورى في المدارس والمكاتب أحفظ تذكراً ثابتاً - لا يزول
أبداً - وهو الخوف من الضرب في الكتاب ضرب بالعصى على
الأرجل أو الكتف أو الرأس أو أى مكان آخر من الجسم . وفي
المدارس بالنسبة المرفقة والفلقة ضرب يبقى أثره مدة أيام ، كنت
أذهب إلى محل التعليم مصحوباً باضطراب في العقل والخفقان في
القلب وارتعاش في الجسم ، وبمعكس ذلك أرى الآن الأطفال
يذهبون إلى المدارس راضين مسرورين - نتيجة منع الضرب فيها
ودخول الألعاب الرياضية .

❖ الحرية

الحرية الحقيقية تختمل إبداء كل رأى ونشر كل مذهب وترويج كل فكر .

فى البلاد الحرة قد يجاهر الإنسان بأن لا وطن له ، ويكفر بالله ورسله . ويضع على شرائع قومه وآدابهم وعاداتهم ، ويهزأ بالمبادئ التى تقوم عليها حياتهم العائلية والاجتماعية . يقول ويكتب ما شاء فى ذلك ولا يفكر أحده . ولو كان من ألد خصومه فى الرأى . أن ينقص شيئاً من احترامه لشخصه منى كان قوله صادراً عن نية حسنة واعتقاد صحيح . كم من الزمن يمر على مصر قبل أن تبلغ هذه الدرجة من الحرية ؟

❖ العبقرية

يظهر لى أن الارتقاء فى الإنسان تابع على الخصوص لجهازه العصبى ، فأكثر الناس استعداداً للرقى هم العصبيون الذين تبلغ منهم الانفعالات النفسية مبلغاً عظيماً ، وتهتز أعصابهم المتوترة بملامسة الحوادث ، فيظهر أثرها فيهم بكثرة وشدة ، أولئك هم السعداء العساء الذين يتمتعون ويتألمون ، أولئك هم السابقون فى ميدان الحياة ، تراهم فى النصف الأول مخاطرين بأنفسهم ، يتنافسون فيما بينهم فى مصادمة كل صعوبة ، من بينهم تنتخب القدرة الحكمية خيرهم وتوحى إليه أسرارها ، فيصير شاعراً بليغاً أو ولياً طاهراً أو فيلسوفاً حكيماً أو نبياً كريماً .

* الفنون الجميلة *

لعل أكبر الأسباب في انحطاط الأمة المصرية تأخرها في الفنون الجميلة : التمثيل والتصوير والموسيقى ، هذه الفنون ترمى جميعها ، على اختلاف موضوعها ، إلى غاية واحدة هي تربية النفس على حب الجمال والكمال ، فإهمالها هو نقص في تهذيب الحواس والشعور .



دخلنا قصر اللوفر ، وكنا أربعة من المصريين ، نستع النظر بأبدع ما جادت به قرائح أعظم الرجال في العالم ، فبعد أن تجولنا في غرفتين ، جلس أحدهما على أحد الكراسي قائلا : أنا اكتفيت بما رأيت ، وها أنا منتظركم هنا . وقال الثاني : أتبعكما لأنني أحب المشي ، وأعتبر هذه الزيارة رياضة لجسمي ، وسار معنا شاخصاً أمامه لا يلتفت إلى اليمين ولا إلى اليسار ، وما زال كذلك حتى وصلنا قاعة المصاغ والحلى ، وحينئذ تنبهت حواسه وصار ينظر إلى الذهب ثم صاح : (هذا ألطف ما في هذه الديار) ! وصلنا إلى تمثال آلهة الجمال الفريدة في العالم أجمع ، فسألت دليلاً : ماذا تساوى هذه الصورة إذا عرضت للبيع ؟ فقال : إنها تساوى ثروة أغنى رجل في العالم ، تساوى كل ما يملكه الإنسان ، تساوى ما يقدره لها حائزها ويطلبه ثمنها إذا لا حد لقيمتها .

* الأتراك

مهما كان الرأي في حكم الأتراك لمصر، فلا ريب عندى أن الأمة المصرية استفادت منهم كثيراً، وجدت فيهم إنسانية راقية فاقبست منهم بالمعاشرة والمصاهرة النظافة وترتيب المسكن والتفنن فى الملبس والمأكل وكثيراً من العادات الحسنة والصفات الأدبية.

وإذا كان التعليم قرب ما بين الرجال من المسافة، فهى لا تزال إلى الآن بعيدة بين المرأة التركية والمرأة المصرية، حتى إنك لترى الرجال المهذبين يتهاقون على طلب الزواج بالأولى بقدر ابتعادهم عن الثانية، واليوم وجد المصريون والأتراك أمامهم إنسانية أرقى، اختلطت بهم اختلاطاً كبيراً، فأخذوا يقلدون الأوروبيين فى جميع شئون حياتهم، ولا أرى أن هذا التقليد سيكون له أثر حميد فى إنقاذ أمتنا فى الحال التى هى فيها الآن.

* الرأى العام

إذا رأيت الرأى العام يرمى أحد رجال الحكومة بالخيانة، ساخطاً عليه، شديد الرغبة فى سقوطه، فاعلم أنه غالباً رجل طاهر وعامل نافع.

وإذا رأيت الرأى العام معادياً لكاتب، وأعد له خصوماً يتسابقون إلى نقض أفكاره وهدم مذهبه، وعلى الخصوص إذا رأيتهم ذهبوا فى مطاعنهم إلى السب والقذف، فتحقق أنه طعن الباطل طعنة مميتة ونصر عليه الحق.

ما هو الرأى العام؟

أليس هو فى كثير من الأحوال هذا الجمهور الأبله ، عدو التغيير ، خادم الباطل ، ومعين الظالم !

لو انتظر المصلحون دائماً ، رضاء الرأى العام لما تغير العالم عما كان عليه من زمن آدم وحواء .

❖ اللذة ومضة لا تتكرر

صنف الطعام الذى أعجبتك ، أو قطعة الغناء التى أطربتك ، أو ليلة الأنس التى رافقتك مع محبوبتك ، أو غروب الشمس البديع الذى خفى لأجله قلبك ، إذا قصدت تكراره فإنك لا تستطيع أن تجد السرور الذى شعرت به لأول مرة ، فلا تحاول أن تنال ذلك فى إعادته .

❖ الجبان المدعى

قبيل الغروب وقف بنا «وابور النيل» الذى كان يحملنا بجانب غيظ مزروع ، وكان يشتغل فيه رجلان ، ملح أحدهما ثعباناً غليظاً قصيراً ، فقر وهو يصيح (ثعبان ، ثعبان ، ثعبان) .

أما الآخر فتقدم إليه حاملاً فأسه وضر به بها عدة ضربات حتى قضى عليه ، ثم تركه فى مكانه ، وأخذ سلاحه وعاد إلى عمله . ولم يتكلم فى أثناء ذلك بكلمة ، وحيث تحرك زميله ومشى محترساً على أطراف قدميه شاخصاً إلى الحيوان ، واقترب منه بطيئاً بطيئاً ، ولما وصل إليه لمسه بطرف الفأس التى كانت فى يده

وقلبه مرة ثم مرة أخرى حتى إذا تحقق أنه مات صاح (يا ابن الكلب!) وطعنه بالفأس طعنة قوية.

ولما رأى الشعبان لا يتحرك أمسكه من ذنبه وصعد به إلى الجسر، وكان في هذه الساعة عامراً بالماوة، فاستوقف الأطفال والنساء والرجال، وصار يقص الواقعة عليهم قاتلاً: (هجم علينا فقتلناه) وفي آخر الرواية يلتقي الشعبان على هذا الجمع فيفرقهم وتصيح النساء ويهرب الأطفال، فيضحك هذا البطل الباسل من هذا الجبن، وما زال كذلك حتى جاء الظلام فانصرفوا جميعاً، وهو في مقدمتهم حاملاً قريسته. أليس هو الحال دائماً في جميع مظاهر الحياة الدنيا: ترفع من رجال العمل عن حب الظهور، وجرأة من رجال القول على اغتصاب أعمال غيرهم والتبجح بها!

* سحر المطبعة *

يفعل الكلام المطبوع في نفس الجاهل فعل السحر، فيستولي على عقله، فإذا روى عن كتاب قال لنفى كل شبهة: هذا مذكور في الكتب، وإذا نقل عن جريدة قال: هذا مذكور في الجرائد.

فإذا اعترضت عليه بأن الخبر يحتمل الصدق وأن الخطأ جاز على صاحب الكتاب أو الجرائد، أجابك: نعم؛ ولكن لا بد أن يكون الكاتب تحوى عن الحقيقة قبل النشر، لأن صناعته تقضى عليه بذلك.



✽ توجد كلمات ألصقها الكتاب بعضها ببعض من قرون طويلة ، فحيث نكون إحداهما تكون الأخرى ، حتى ملئت طول العشرة : كالعالم العلامة ، والخسب النسب ، والصديق الحميم ، والسيدة المصونة ، فإما طلاق يرد إليها حرية الاقتران بكلمات أخرى ، وإما على الأقل حيلولة مؤقته تستريح في أثنائها من هذه الشراكة القهرية .



✽ الذوق

من أعظم ما يصاب به المرء أن يحرم من الذوق السليم .
الذوق السليم هو هذا الإحساس الفطري الذي ينمو ويتهدب بالتربية ، هو الشعاع اللطيف الذي يهدي صاحبه إلى أن يقول ويفعل ما يناسب المقام ويجنب ما لا يناسبه .
وعكسه هو الذوق المصطلح عليه بين جماعة النظرفاء عندنا ، هم على يقين من أن الذوق لم يخرج من مصر .

يقصد الناس التيارات لرؤية الحوادث الغريبة وسماع القصص المضحكة أو المبكية ، والعامل يكتفى بما يراه حوله ويسمعه ، يتفرج مجاناً على وقائع لم تبلغها مخيلة المؤلفين ولا مهارة الممثلين .

✽ صداقة

كان خمسة من أرباب المعاشات : خمسة شيوخ ، مروا على

فروع الإدارة المصرية القديمة وتقلبوا في مناصبها العالية من مديرية إلى مجلس الأحكام إلى ديوان الأوقاف إلى السكك الحديدية. اختاروا بيت أحدهم، أكبرهم رتبة، وصاروا يجتمعون فيه من الصباح إلى الظهر، ومن العصر إلى بعد الغروب، جالسين على الكراسي في بستان عتيق مهمل، ولكنه واسع الأرجاء، تطاول أشجاره السماء، هواؤه معطر بروائح الزهور، لا يصل إليه شيء من ضوء الطريق، ولا يسمع فيه غير تغريد الطيور، ماذا كانوا يقولون ويفعلون؟ كانوا يقضون الأيام الباقية من عمرهم مؤتسرين بهذا الاجتماع، مكتفين به لسد فراغ حياتهم، وفي بعض الأحيان يلعبون الشرد، فيتقدم منهم اثنان إلى ميدان المبارزة، ويلتف حولهما الباقيون للفرجة، وإذا ذاك ترتفع أصواتهم - شيش يث - بنج جهار - خانة - اضرب - ويتناقشون بحدة، هذا يضحك لأنه غالب والآخر يغضب لأنه مغلوب، فإذا انتهوا من اللعب أخذوا ينحادثون ويذكرون ماضي حياتهم وسيرتهم في أعمالهم بالتفصيل والتدقيق في تواريخ السنين والشهور، ويخرجون من أعماق حافظتهم الأمانة حوادث مهمة ووقائع غريبة، رأوها أو سمعوها أيام حكم الخديويين السابقين، يروونها ويكررونها مرات كلما عرضت لذلك مناسبة، ويتخلل هذا الحديث تهكم بقواعد الإدارة الحديثة واستهزاء برجال الحكومة الحالية وملاحظات على فساد أخلاق هذا الجيل وعلى اختلال الأمن وضياع احترام الصغير للكبير والوضيع للرفيع والمحكوم لنحاكم، وذلك بعبارات وألفاظ هادئة مجردة من حدة الشهوات والتأثر، سوى نوع من التألم كان يبدو أثره أحياناً على وجوههم. وهناك

موضوع كان يتردد في غالب الأحيان في حديثهم ، هو تقدير سن كل واحد منهم ، متى طرّقه جرحهم إلى مناقشات شديدة وعمليات حسابية طويلة وخلط في الأرقام والوقائع وعوج في الرأي وإياء للحق ومغالطات ظاهرة . كانوا هم أنفسهم أول من يضحك منها بصوت عالٍ ضخم ، يسمع دويه من مسافة بعيدة ، ومهما بلغ جهدهم في الفحص والأخذ والرد فقد بقيت هذه المسألة غامضة ، وظل كل منهم حافظاً مركزه متمسكاً بزعمه . وفي يوم حضروا كعادتهم إلى بيت زميلهم فوجدوه قد مات في الليل ، فنقلوا مركز اجتماعهم في اليوم التالي إلى بيت أحدهم ، واستمروا هم الأربعة على حالهم المعهودة ، ولكن نفوسهم كانت تشعر دائماً ببعض الحزن ، كأن روح فقيدهم كانت تطوف حولهم وتشكو إليهم أفرادها ، وتدعوهم إلى الانضمام إليها ، فلبى ثلاثة منهم هذا النداء المستمر ، وماتوا واحداً بعد الآخر في مدة قصيرة ، وبقي خامسهم إلى الآن منفرداً كثيراً لا يتكلم ولا يخرج من بيته ، لا يدري ماذا يصنع بحياته ، ويرقب الموت الذي يخلصه منها .

* ليس نقداً

أعرف حسين بك؟

لا .

رجل خفيف ولطيف لا تغيب البشاشة عن وجهه ، ولم يره أحد قط غير مبتسم . إذا قال لك : نهارك سعيد ، ضحك ، وإذا أخبرته أن الهواء طيب ، ضحك ، وإذا سمع أن زيداً مات

ضحك ، زينة المجالس ، وأنيس النوادي ، يرى نفسه مكلفاً بوظيفة
السرور فيها ومنوطاً بنشر التفریح حوله ، يستخدم كل شيء ، لتسلية
نفسه وأصحابه فيجد في أهم الحوادث موضوعاً للتنكيت ، وفي
أحسن الرجال محلاً للسخرية . لو ضحيت حياتك في أشرف
الأعمال لا بد أن يفتش فيها عن الجهة التي يتخذها واسطة
للاستهزاء وجعلها أضحوكة للناس .

بين هذا الهذيان القبيح والانتقاد الهزلي الصحيح فرق عظيم ،
الانتقاد الهزلي الصحيح يصدر عن علم وشعور وذوق سليم ينظر
إلى موضع العيوب في الإنسان وجهات الضعف في الحوادث
فيبتسم بسكون ولطف ، وإذا علا صوته للضحك فليس لأن
الضحك غاية بل بعده وسيلة للفت النظر إلى شيء يحزنه وأمر
يبيكه .

غرضه الإصلاح ، فيجاهد فيه بالطريقة التي يراها مناسبة
لاستعداده الطبيعي . لا يحقر إحساساً شريفاً ولا يصغر عملاً
كبيراً ، وإنما يحارب الرذائل والدنایا ، ويلحق بها أخف ما يمكن
من الضرر ، في هذا الأسلوب تبع عدد كبير من الكتابات
والشعراء والقصاصين في أوروبا ، وعدوا من أعظم رجال
الأدب والفلسفة .

* تحايل

أخبرني موظف في الأزهر ، لا يخفي عليه شيء من أسرار
الطلبة ، أنه كلما أراد واحد ممن فسدت أخلاقه منهم أن يسير

وراء شهوته ذهب إلى أحد البيوت العمومية وعقد على امرأة بحضور شاهدين على مهر خمسة قروش أو ما يقرب من ذلك ، فإذا قضى شهوته طلقها وخرج معتقداً أنه برىء من كل ذنب .

* * *

* سئل ح . بك - ما رأيك في كتاب «تحرير المرأة»؟

فأجاب : ردىء ! هل قرأته ؟ - لا - أما يجب أن تطلع عليه قبل الحكم بردائه ؟ ما قرأت ولا أقرأ كتاباً يخالف رأى !

* * *

* أخلاق جديدة عند الشبان : علمت أن بعضهم يحمل قوائم تشتمل على معلومات مفصلة عن البنات اللاتي يرشحون أنفسهن لخطبتهم ، وعلى الخصوص على حالتهم المالية وحال بيوتهن ، فيرصدون فيها ما تملكه من الأطنان والأماكن وقيمة ما تساويه ريعها ورسن والدها والأمراض التي يكون مصاباً بها وعدد الورثة الذين يتركهم بعد موته . . إلخ . معلومات لا يفكر في جمعها أشد المرابين احتياطاً إذا أقرض مبلغاً جسيماً بدون تأمين .

* الحجاب الفتنة

رأيت يوماً في شارع الدواوين امرأة تمشى وأمامها خادم ، يظهر من هيبتها أنها من عائلة كبيرة ، طويلة القامة تمثلت الجسم عمرها

بين العشرين والثلاثين ، في وسطها حزام من الجلد مشدود على
 خصر رفيع وملاء منطبقة على جسمها انطباقاً تاماً ، الجزء الأسفل
 بارز عند الأرداف ومرسوم تحت ستار الملاء باعتدال جميل ،
 والقسم الأعلى غير مستور ، وإنما الملاء مشبوكة في رأسها
 مسدولة على كتفيها وذراعيها إلى المرفقين ، على وجهها قطعة من
 الموسلين الرقيق أقل عرضاً من الوجه ، تحجب فاهها وذقنها حجاباً
 لطيفاً شفافاً كما تحجب قطع السحاب الرفيع شكل القمر ، وترك
 العيون والحواجب والجبهة والشعر إلى منتصف الرأس مكشوفة .
 كانت تمشي خطوات مرتبة يهتز معها جسمها مائجاً كما تفعل
 الراقصة على المسرح ، وكانت تخفض جفونها بحركة بطيئة
 وترفعها كذلك ، وترسل إلى المارة نظرات دعابة ورخاوة وحنان
 واستسلام ، وبالإجمال كان مجموعها تحريضاً مهيجاً خواصهم !



كتبت والدته من قدماء المصريين على قبر ابنها : « من انتهك
 حرمة هذا القبر فليكن آخر من يموت من يحبهم ! » . كلمة خرجت
 من نفس ذاقت آلام الحياة بجميع أنواعها ودرجاتها ، كلمة يفرغ
 من هولها كل من فارق عزيزاً محبوباً .



* لا فرق بين من يخشى سرّاً أو ممن عليه وبين من يختلس مალأ
 أودع عنده .



* الزواج

المصريون الذين يفهمون أن للزواج معنى غير مجرد الاستمتاع المؤقت هم تابعون لقانون الحب والأمانة والإخلاص لنسائهم وأولادهم ، قانون أعلى من مبادئ حب الذات التي وضعها بعض فقهاءهم .

ما دام الطلاق متروكاً إلى رأى الزوج يستحيل أن يشبهت في نفوس الرجال والنساء أن أساس الزواج فكرة الاستمرار والمعاشرة إلى آخر الحياة .



الزواج عندنا حياة رجل لامرأة يوماً أو شهراً أو سنة أو عدة سنين ، حياة تنتهي بمجرد إرادة الرجل ، ولا فرق بينها وبين الحياة غير الشرعية ما جاز للرجل أن يدفع زوجته إلى الباب ويقول لها: اخرجي .



السامة علامة النفس الشريفة .

* التربية

يولد الإنسان شريراً خبيثاً قاسياً محتالاً كذوباً ، الولد الصغير لا يعرف إلا نفسه ولا يرى إلا نفسه ولا يحب إلا نفسه ولا يتألم إلا من نفسه ، وفيه أثرة هائلة لا حد لها ، هذه العيوب تنمو مع

الطفل ، وتبقى فيه حتى يصل إلى سن الرجال ، فيتعلم كيف يخفيها ، يحسن ظاهره ويستر باطنه . أعظم ما تنتجه التربية الجيدة إذا استمرت بلا انقطاع هو أن تقطع من النفس فروع هذه الشجرة الخبيثة ، ولكنها لا تستطيع أن تقلع جذورها .



* الوطنية *

من ذا الذي ينكر على المصريين تقدمهم في الإحساس الوطني ؟ عاش أبائنا وتعلموا واشتغلوا بالصناعة والتجارة ، وخدموا أمتهم وفتحوا البلاد وحاربوا الأمم ، ولم تسمع عنهم أنهم كانوا يحبون وطنهم ويتهمون خصومهم بالخيانة ، أما الآن فأبما قرأت ، وفي أي مكان ، وجدت لا أسمع إلا حب الوطن والغيرة الوطنية والتفاني في خدمة الوطن والجريدة الوطنية والمدرسة الوطنية وحزب الوطن والبيوت التجارية والمحال الصناعية والصيدليات وعيادات المرضى التي تشغل وتبيع وتعالج وتربح لخدمة الوطن . صار حب الوطن ديناً جديداً ، من اعتنقه ربح ومن بعد عنه خسر ، صار كعصارة الطماطم يوضع في كل شيء ليكسبه ذوقاً حامضاً يجعل تناوله سهلاً مقبولاً !

* التقلب *

أردنا أن نحصى تقلبات أحد معارفنا في آرائه العمومية . فوجدنا أنه كان عرابياً ، فلما انتهت الثورة بالفشل صار يطلب

السجن والشنق لشركائه وأصحابه! وكان من المقربين عند أحد رؤساء الحكومة السابقين، فلما ترك الحكومة تخلى عنه وانضم إلى أعدائه، وصار أكثرهم سفاهة في الطعن عليه! وهو كما يعرف جميع زوايا قصر عابدين لا يجهل شيئاً من قصر الدويارة! كان يتوحد إلى أحد أصحاب الجرائد، ويمده بأفكاره وأخباره، ثم قطع كل علاقة به وتحول إلى أشد خصومه! وأخيراً، اشترك في تأسيس جريدتين مبدأ كل منهما مخالف للآخر! ومن المؤكد أن خاتمة حياته ستكون حميدة؛ لأنه منى شعر بقرب ملاقاته به تقرب إليه بالدعاء والصلاة!

※ اللذة الحقيقية

اللذة التي تجعل للحياة قيمة ليست حيازة الذهب ولا شرف النسب ولا علو المنصب، ولا شيء من الأشياء التي تجري وراءها الناس عادة، وإنما هي أن يكون الإنسان قوة عاملة ذات أثر خالد في العالم.

※ البلاغة

الكاتب الحقيقي يجنب استعمال المترادفات، فلا يأتي باسمين مختلفين لمعنى واحد في مكان واحد، لأن ذلك يكون حشواً في الكلام مستهجنًا، ودليلاً على فقر في الفكر والخيال، ولكن إذا كان المقال يستدعي ذكر عدة معانٍ متقاربة يجمعها معنى واحد، فاستعمال المترادفات الموضوعية لها حسن، وقد يكون مطلوباً إذا

كان لازماً لتسهيل فهمها أو إظهار الفروق التي بينها . كذلك الكاتب المجيد لا يضع صفة بجانب الاسم إذا لا اقتضى الحال أن يميزه بصفة مطابقة للواقع ، على أن الاعتماد على ذكر الصفات والمبالغة فيها بقصد التأثير هو أقل درجات فن الكتابة ، ويفضلها بكثير طريقة الكتاب الغربيين الذي يعولون في الوصف على ذكر الوقائع وشرح ظروفها وتحليلها تحليلاً دقيقاً ، أو تشريح الإنسان وفتح جوفه وكشف ما خفى من أعصابه وسير غوره أحشائه والتسمع على نفسه لإدراك ما يدب فيها من النزعات والخواطر والأميال والحركات ، ويوصف منظر الشيء بهيكله التام بأجزائه كلها ليحدث في نفس القارئ أو السامع صورة كاملة وشعوراً تاماً وأثراً باقياً .

* جنازة

ما رأيت جنازة مسلم إلا أتجلى منظرها . هذه الجمال التي تحمل القواكه ويلتف حولها الأطفال والرجال ويتشاجرون على اختطاف ما يلقي لهم منها على الأرض ، وهذه الجاموسة المسكبة التي يزفها الجائعون والشحاذون ويتضاربون على قسمتها قبل أن تموت ، وهؤلاء الفقهاء الذين يجرب بعضهم بعضاً وليس فيهم إلا الأعمى والأعرج والأعور ، ويمشون بسرعة غير منتظمة ، لا يسير ثياباً قلدة ! صائحين بأصوات مزعجة ، كلمات تخرج من حناجر مختنقة بنغمات شنيعة ، وهذا النعش المحمول الذي يتخبط فيه الميت ويلتفت تارة إلى جهة اليمين وتارة إلى جهة الشمال ، وأحياناً بطير في السماء إن كان من الأولياء المقربين !

وهؤلاء النسوة اللاتي صيغن أيديهن ووجوههن ، وعفرن
 بالتراب رؤوسهن ، يمشين وراء النعش مشيرات بالمناديل إليه
 بإشارات مريعة مصحوبة بألفاظ مرتلة ، ما هذا كله؟ أمجمع
 مجانين ، أم نفر بهم من من الشياطين؟ العوبة أطفال ، أم
 معرض كرنفال؟!

في الجنائز التي تمر في الطريق شيء من جميع ذلك ، ولا
 ينقصها إلا أمر واحد وضعت لأجله هو : إظهار الاحترام للميت
 بالصمت والسكون .



لما كنت في الأستانة توفي في الليل بغصة رجل كان بيته
 ملاصقاً لبيتنا ، فلم أسمع عويلاً ، ولم نشعر بحركة غير
 اعتيادية ، وفي الضحى خرج النعش ونقل الميت إلى القرافة
 مشيعاً بأقاربه وأصحابه من الرجال فقط ، ومشيت معهم فلم
 يرتفع صوت واحد منهم بتلاوة القرآن أو بذكر الله أو بالصلاة
 على النبي ﷺ بل كانوا يسيمرون صامتين خاشعين مطاطين
 رؤوسهم ، فلما انتهوا من دفنه عاد أهل الميت إلى بيته وأغلقوا
 الباب كعادتهم .

* شراة

دعينا للعشاء عند م . باشا ، وكنا ستة أو سبعة من الأصحاب ،
 مسرورين باجتماعنا ، مستعدين للتمتع بمسامرة ودية مجردة عن
 التكلف ، وبينما نحن متجهون إلى قاعة الطعام إذ دخل علينا زائر

من المشايخ ، فاضطر صاحب المنزل إلى أن يدعوه إلى الأكل معنا ،
فدخل آمناً ، واختار لنفسه أحسن مكان ، وكان أول الجالسين .
جلس على الكرسي القرفصاء فانفتح قفطانه وظهرت سراويله ،
ثم برم كم القفطان والقميص الذي تحته برما محكما ، فانكشف
الساعد إلى المرفق ، فتمثل لي جالسا في مكان من الميضاء يستعد
للوضوء ! اشتغل بالأكل ولم ينطق بكلمة أو يصغ لحديث ، ولما
كان بعيداً عن المائدة كان كلما يتناول شيئا من الطعام يسقط بعضه
إلى ملبسه ، وكان يلقي العظام على مفرش المائدة ، فلما امتلأ
بطنه أخذ ينكش أسنانه ، ويخرج منها فضلات الأكل ، فيقذفها
من فمه بقوة يميناً وشمالاً .

وبينما نحن شاخصون إلى حركات هذا الشيخ صاح أحدنا
- أه يا عيني - وقام واضعاً يده على عينه فالتفتنا حوله وسألناه
الخبر ، فأخبرنا بأن قطعة من العظم دخلت في عينيه ، فتأملنا
فلم نجد فيها أثراً ، فضحك وقال : إنها نفذت فيها وخرجت من
الجانب الآخر !

✽ الشكل والجوهر

كلما رأى الناس أن حالتهم العمومية أصبحت على غير ما
يحبسون ، ظنوا أن العيب في النظام لا في الرجال ، وفكروا في
وضع قواعد جديدة للسياسة والإدارة والقضاء . مؤمنين أن يجدوا
الإصلاح الكبير .

مثلهم كساكن بيت ضعفت جسمه الرطوبة ، فأراد أن

يتخلص منها فغير أثاث البيت ورتبه على غير الشكل الأول ،
تعب ضائع .

✽ الرغبة والاستعداد

بنتي الصغيرة التي عمرها خمس سنين تظن أنه يمكنها أن تأني
بنفسها كل ما تراني أعمله ، فإذا أمسكتها من يديها ورفعتها من
الأرض لأقبلها تقول لي : أنا أيضاً أرفعك ، وتمسكني بيديها من
أفخاذي وتجهد نفسها حتى يحترق وجهها لتحملي كما حملتها .

وإذا رأت أن رجلاً عبر قناة ماء بوثبة تحفرت لتفعل مثله ، تظن
أن كل ما ترغبه جائز سهل ، كذلك الرجل الجاهل ، يخيل له أنه
كفء لأصعب الأعمال ، ومستحق لأصعب المناصب ، ومساو
لأرقى الرجال ، يظن أنه منح استعداداً فطرياً ، يجعله قديراً على
كل شيء ، يظن أنه يطيق كل ما يريد .

* * *

✽ عرس

كنت في ليلة فرح ، وكانت الحفلة من أفخم وأجمل ما رايت
من نوعها ، أنفق فيها الذهب بلا حساب . وعند العاشرة دخل
العروس ، وصدحت الموسيقى إعلاناً بذلك ، فقلت لصديق كان
جالساً بجانبى : هذا إعلان لعامة الحاضرين بأمر سيثم بين
الزوجين . كان من حسن الذوق أن يبقى مستوراً . وما أحسن ما
اعتاده الغربيون ، فإن الزوجين منهم يكونان مع المدعوين إذا بهما

قد اختفيا عن أعين الحاضرين بدون أن يشعر بهما أحد، وبغيبان عدة أسابيع، فوافقني صديقي على ذلك ثم قال: أريد أن أقص عليك لهذه المناسبة شيئاً رأيته بعيني؟ قلت: نعم، فقال:

كان سني لا يتجاوز تسع سنين، ولا تزال صورة الواقعة التي سأقصها الآن محفوظة في ذاكرتي كما لو كانت حصلت منذ أسبوع. كان المنزل المقابل لمنزلنا يستعد شيئاً فشيئاً لحفلة كبيرة. نصبوا من أجلها سرادقاً واسعاً، ووضعوا فيه الكراسي المذهبة، وعلقوا البيارق والنجف، وكل يوم يمر يزيد في رونق الزينة وترتيبها، فلما جاءت الليلة الكبيرة أضيئت الشموع، وصدحت نغمات الموسيقى، وتقاطرت وفود الرجال والنساء إلى البيت، يدخلون منه أفواجا، فيجلس الرجال في الصبوان، وتختفي النساء في بيت الحريم الذي كانت تسطع فيه الأنوار وتخرج من نوافذه، ونحن سكان هذا الشارع الصغار عشرين أو ثلاثين طفلاً من كل سن كنا أول المتفرجين وأكثرهم تمتعاً، فرحين بهذه المناظر المراقبة والأنوار الذهبية والأضواء المنتشرة، لجلس ونقوم ونجري ونضحك ونتشاجر، سكارى من ضوضاء الأصوات وضيء الأنوار.

فلما زف العروس بعد العشاء على الطريقة المعهودة، دخل إلى البيت ودخل وراءه بعض الأولاد وكنت من بينهم، فرأيت سلم المنزل وفسحة الدور الأول مملوءة بالنساء وهن يتزاحمن للوصول إلى الصف الأول لمشاهدة العروس داخلاً. وكان أحد أقاربنا ماشياً أمامه، فصار يدفعهن بيديه ليخلي له الطريق حتى وصل

إلى غرفة عروسه ، فأدخل فيها وأقفل الباب عليه ، وحيث وقف النسوة أمام الباب كأنهن يترقبن حادثاً كبيراً ، وهذا لم يمنعهن من المحادثة والمجادلة والضحك على شكل غير منتظم يستحيل معه التمييز بين من تقول ومن تسمع ، ومن حين إلى حين تنادى إحداهن : « هس ياسئات » وتستمر هي في الكلام أكثر من غيرها . ما الزمن الذي مضى ونحن على هذا الحال ! لا أدري . ثم سمعت صياحاً متكرراً أتى من داخل الغرفة ، فازداد القلق والاضطراب بين جماعة النساء ، وما زال يتضاعف حتى أدى بهن إلى الدق على الباب ، وبعد برهة فتح الرجل الباب وظهر عارى الرأس يارق العينين محتقن الوجه ، وتكلم مع أمه وأم زوجته كلاماً شديداً مصحوباً بإشارات الغضب ، ومن وقت لآخر كان يقول : ماذا أصنع . . لا أقدر . . وبعد مداولة صغيرة رجع ودخلت وراءه المرأتان ، وتبعه الجيش الذي كان واقفاً وراء الباب مدفوعاً كالسيل ، وقد جريت معهم حتى صرت قريباً من السرير ، فرأيت العجوزين قعدتا على صدر البنت ، وقبضت إحداهما على ذراعبها ، والأخرى على فخذيها ، فزاد صياح البنت ، وبكاؤها ، وتقدم الرجل ويده خرقه بيضاء ، رأيتها بعد ذلك ملوثة بالدم . فخرجت هارباً من هذا المنظر الشنيع ، لا أشك أنهم ذهبوا !

• التحرر

في عهد الاستبداد في الوقت الذي كانت فيه كلمة محمد على أو إسماعيل تكفى لإعدام من يغضب عليه أو يرسله إلى البحر الأبيض ، في تلك الأيام السوداء التي كانت فيها حياة الإنسان

وحريته وأمواله مهددة بأنواع الخطر ، ولم يكن لأحد مهتماً كان مقامه في الوجود ضماناً تحميه ، في ذلك العهد ظهر أفراد وجدوا من شعورهم ما دفعهم إلى صد إرادة الحاكم والتصريح بأرائهم .

واليوم زالت أسباب الخوف من الحاكم ، فهل زادت قدرة الناس على المجاهرة بالحق والتصريح بأرائهم ؟ من ينظر نظراً سطحياً يظن أننا بلغنا من استقلال الرأي مبلغاً لا ينافسنا فيه أحد ، حيث لا يجد من الأمة أدنى أثر للخوف من الحكومة ، بل يرى بالعكس أن الاستخفاف بها صار عاماً ، وأنه لم يبق بين جميع طبقات الموظفين شخص محترم ، اللهم إلا إذا كان جاويز البوليس أو خفير الترعة !

ولكنه إذا حقق النظر لا يلبث أن يرى حرية الانتقاد لم تستعمل إلى الآن في أعمال الحكومة إلا لأن هذه النعمة الجديدة تطرب أذان السامعين وتفتح قلوبهم وجيوبهم .

أما المسائل الأخرى : الدينية والاجتماعية والمتعلقة بالأحوال الشخصية والعادات والأخلاق ، فلم ينجد فكر الباحثين إلى انتقادها ، فهل لم ير أحد منهم فيها عيباً ينتقد ؟ كلا ! وإنما هم يرون العيوب ولا يجرون على إظهارها .

* المشروعات الخيرية

قال أحد أعيان الأقاليم : في هذه الأيام كثرت فيها الاكتتابات للجمعيات الخيرية والمدارس والكتاتيب والمستشفيات ولا يتدبره

أحد من الأمراء والدوات وكبار الموظفين والأغنياء المقسمين في
العاصمة للاشتراك فيها ويتحمل جزءاً من مخارمها ، يجب على
عمد القري وأعيانها أن ينشئوا جمعية للدفاع عن أموالهم ،
يسمونها جمعية منكوبى المشروعات الخيرية !

* كلنا قدرت على أن أقوم بخدمة طلبها متى صدق آمنت
على خسارته وعددته عدواً جديداً .

* قادتنا

ليس في فطر عالم محيط بجميع العلم الإنساني ، وليس بيننا
من الختص بفرع مخصوص في العلم ووقف نفسه على الإلمام
بجميع ما يتعلق به ، ولم يظهر منا فيلسوف اكتسب شهرة عامة ولا
كاتب ذاع صيته ، مثال هؤلاء هم قادة الرأي العام عند الأمم
الأخرى والمرشدون إلى طرق نجاحها والمديرون لحركة تقدمها ،
فإذا عذمتهم أمة حل محلهم الناصحون الجاهلون والسياسيون
المشعورون ، والحقيقة المجردة من الأوهام والأغراض أن كل ما
وجد في مصر من الحرية والنظام والعدل لم يوجد ولم يستمر إلا
بعمل الأجنبى وعلى رغم أهلها .

* طالب وظيفة

زارنى أحد أصحابى ، وكان يرافقه شاب من أقاربه ثم فى هذه
السنة دروسه ، وطلب منى أن أتوسط له ليحصل على وظيفة ،
فمذدت يدى إلى هذا الشاب مسروراً ، فوضع فيها بدأ فائرة

ومسحبها بسرعة. أشرفت عليه بالجلوس على كرسي فاستحسن أن
يجلس على «الكنها» التي أردت أن أخص قريبه بها، وقبل أن
يجلس شعر بنظرونه بعد أن تحقق من انتظام ثناياه، ثم قعد ووضع
رجلاً على الأخرى. سألته عن الوظيفة التي يرغبها، فعلمت أنه
يريد أن يعين في وظيفة مرتبها خمسة وعشرون جنيهًا في الشهر،
فأفهمته أنه يطلب المجال، وأن لوائح الحكومة لا تميز هذا
الطلب، فلم يقتنع، وأخذ يقيم الأدلة على أن الحكومة إذا شاءت
يمكنها أن تعينه بطريقة استثنائية، فقلت له: ولكن ما هي
المسوغات التي تحمل الحكومة على تقرير الاستثناء الذي تطلب أن
تتمتع به؟ فقال: كفاءتي، فقطعت عليه الكلام، وكررت له أن
طلبه غير مقبول، فحوّل وجهه عني وأخذ يقتل شاربه بحركة
عصبية ثم التفت إلي وقال: الممنون، نهارك سعيدًا وخرج،
وتبعه قريبه بعد أن اعتذر لي بكلمتين، فلما خرجا سرح فكري
فيما سمعت ورأيت، وتأمّلت في حال هذا الشاب، ووردت على
خاطري أحوال أخرى وقعت من أمثاله معي ومع غيري، أحوال
تندّر بوجود حالة أدبية سيئة عند الكثير من شبابنا، تجعلهم ضئلاً
خاصاً لا يشبهون معها شبيبة الجيل الماضي التي عاشت كثيراً من
أفرادها، ولا الشبيبة التي عرفت في البلاد الغربية واختلطت بها
زمنًا. هذه الواقعة حركت في نفسي حياتي الماضية، ومثلت في
ذاكرتي صور شبان محبوبين متحلين بالآداب والحياة والتواضع
والانقياد، وكانوا مع ذلك لا ينقصون من جهة المعارف عما
يتحصله الشباب في هذه الأيام، وإنما الفرق هو أن الشيء القليل

الذى يتعلمه الشاب فى هذا الزمن يتورم فى مخه حتى يسد فراغه ويجعله يتخيل أنه يحمل كنوز السماوات والأرض .



* العبقريّة

العقل والجنون شيان متضادان ، ولكن حدودهما متجاورة مختلفة . وفى الحقيقة لا يعرف أحد أين ينتهى العقل وأنى يتبدى الجنون ، إن كان التوازن بين قوى النفس هو علامة العقل ، فالنبوغ فى المدارك والخيال غالباً نتيجة اختلال فى هذا التوازن .

يظهر أثر ذلك عند الكثير من أعظم الرجال المصابين بشذوذ فى الأخلاق أو نوب عصبية أو ولوع بالاعتقادات الباطلة والخرافات الصبائية أو إفراط مغيب فى تطلب الشهوات أو بالانفراد عن الناس والتوحيش أو بزيغ فى الخواص عن القوانين الطبيعية أو بأى أمر آخر يكون عنده مخالفاً أو رائداً عما تشاهد عند متوسطى الحال فى الذكاء والإحساس .

ربما كان الإبداع فى الاختراع والتأليف وما يستلزمه من احتقان المخ وإشغال الذهن وحصر الفكر وتأثر الأعصاب والجهد فى توحيد المعانى من أسباب تعاضم هذا الشذوذ الذى يجعل النابغة إنساناً غريباً رائداً من جهة وثاقصاً من جهة أخرى .



معاقبة الشر بالشر إضافة شر إلى شر

* مصطفى كامل

١١ فبراير سنة ١٩٠٨ ، يوم الاحتفال بجنائز مصطفى كامل ،
هي المرة الثانية التي رأيت فيها قلب مصر يخفق . المرة الأولى
كانت يوم تنفيذ حكم دنشواي .

رأيت عند كل شخص تقابلت معه قلباً مجروحاً ، وزوراً
مخنوقاً ودهشة عصبية بادية في الأيدي وفي الأصوات ، كان
الحزن على جميع الوجوه ، حزن ساكن مستسلم للقوة ، مختلط
بشيء من الدهشة والذهول ، ترى الناس يتكلمون بصوت
خافت ، وعبارات متقطعة ، وهيئة يائسة ، منظرهم يشبه منظر قوم
مجتمعين في دار ميت ، كأنما كانت أرواح المشنوقين تطوف في كل
المدينة .

ولكن هذا الاتحاد في الشعور بقي مكتوماً في النفوس ، لم يجد
سبيلاً يخرج منه ، فلم يبرز بروزاً واضحاً حتى يراه كل إنسان .

أما في يوم الاحتفال بجنائز صاحب « اللواء » فقد ظهر ذلك
الشعور ساطعاً في قوة جماله ، وانفجر بفرقة هائلة سُمع دويها
في العاصمة ، ووصل صدى دويها إلى جميع أنحاء القطر .

هذا الإحساس الجديد ، هذا المولود الحديث الذي خرج من
أحشاء الأمة ، من دمها وأعصابها ، هو الأمل الذي يتسم في
وجوهنا البائسة ، هو الشعاع الذي يرسل حرارته إلى قلوبنا
الجامدة الباردة ، هو المستقبل !

المصادر

- الزركلي : (الأعلام)، طبعة بيروت .
- سركييس : (معجم المطبوعات العربية والمعرية)، طبعة القاهرة ١٩٢٨ .
- الطهطاوى : (الأعمال الكاملة)، دراسة وتحقيق : الدكتور محمد عمارة، طبعة المؤسسة العربية، بيروت سنة ١٩٧٣ .
- قاسم أمين : (الأعمال الكاملة)، دراسة وتحقيق : الدكتور محمد عمارة ، طبعة المؤسسة العربية، بيروت سنة ١٩٧٦ .
- كحالة : (معجم المؤلفين) طبعة دمشق .
- الكواكبي : (الأعمال الكاملة)، دراسة وتحقيق : الدكتور محمد عمارة، طبعة المؤسسة العربية، بيروت سنة ١٩٧٥ .
- محمد حسين هيكل (دكتور) : (تراجم مصرية وغربية)، طبعة القاهرة، مطبعة مصر، بدون تاريخ .
- محمد عبده (الأستاذ الإمام) : (الأعمال الكاملة)، دراسة وتحقيق : الدكتور محمد عمارة، طبعة المؤسسة العربية، بيروت سنة ١٩٧٢ .

- محمد فؤاد عبد الباقي : (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم)، طبعة دار الشعب، القاهرة.
- المعري (أبو العلاء) : (لزوم ما لا يلزم) تحقيق : أمين عبد العزيز الخانجي، طبعة القاهرة سنة ١٩٢٤.
- الموسوعة العربية الميسرة: طبعة القاهرة، الثانية.

❖ إن الخلاف شديد حول قاسم أمين ١٩..

❖ هل هو «نافذة للتغريب» هبت منها رياح «التحلل» على عالم المرأة المسلمة ١٩..

❖ أم هو بطل التحرير للمرأة من «أغلال عصر الحريم» ١٩

❖ ثم.. ماذا عن رأيه في «التمدن الإسلامي» ١٩... وهي صفحة في فكره، يجهلها الكثيرون ١٩..

❖ إنها.. إذن.. قراءة جديدة، ومثيرة لقاسم أمين يقدمها هذا الكتاب.



دار الشروق

www.shorouk.com